
البلاغة العربية
بين
التقليد والتجديد
تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
د. عبد العزيز شرف
دار الجيل
بيروت

البلاغة العربية
بين
التقليد والتجديد

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

د. عبد العزيز شرف
أستاذ الإعلام الإسلامي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

ليس من شك فى أن فساد الأذواق ، وانحراف الملكات ، وتضاؤل الطبع فى نفوس العرب ، بعد اتساع الفتوحات الاسلامية ، وامتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وظهور اثر هذا الامتزاج فى الألسنة والطباع ، ليس من شك فى ان ذلك كله كان الباعث على تدوين أصول لتكون ميزانا سليما توزن به بلاغة الكلام ، ولتعصم هذه الأصول الأدباء والمتأدبين من الخطأ فى الأسلوب والبيان .. ويضاف الى ذلك عامل آخر بعيد الأثر فى تدوين البلاغة ، هو الرغبة فى فهم أسرار اعجاز القرآن الكريم ، واقامة الأدلة العلمية على هذا الاعجاز .

ولقد أخذ النقاد والأدباء والكتاب فى القرن الثانى يحاولون فهم أسرار البيان ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم فى جمال الأسلوب ، واشترك فى النهوض بهذا العبء منذ العصر الأموى كثيرون ، فى مقدمتهم : ائمة الشعر والخطابة وفحول الكتاب والرواة وعلماء الأدب من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجال النقد الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى . ونشأت من ذلك آراء كثيرة فى البيان وتحديده . نجدها فى مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة .

ثم ألفت فى القرن الثالث كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البيان وبحوثه ، ومن هذه الكتب :

اعجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ ، والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ ، وصناعة الكلام للجاحظ ، ونظم القرآن والتمثيل له ايضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد . والبلاغة للحرانى ، وقواعد الشعر لثعلب ، والبلاغة والخطابة للمروزى ، والمطابق والمجانس لابن الحرون ، وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى ، واعجاز القرآن فى نظمه وتاليفه للواسطى المعتزلى ــ ٣٠٦ هـ) . وصنعة البلاغة للباحث .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البيان بالبحث ، أو التى ألفت فيها خاصة هى : البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هـــذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتتعرض لتحديد البلاغة والبيان وما حولهما من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البيان وأصوله ٠

ولا يضير الجـــاحظ أن كانت دراســـاته موجزة مفرقة كمـــا يقول أبو هلال (١) ؛ فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان ، وهى التى أوحت الى كثير أن يعدوا الجـــاحظ الواضع الأول لعلم البيان ٠ ومن الخطـأ التهوين من أثر الجاحظ فى البيان ، كما ذهب اليه بعض الباحثين ٠

وعلى نهج الجاحظ سار المبرد فى كتابه الكامل ، ففيه آراء كثيرة وروايات مدونة تتصل بالبيـــان وموضوعاته ٠٠ وكذلك ابن المدبر فى كتـــابه الرســـالة العذراء ، ثم ابن عبد ربه فى العقد ، والحصرى فى زهر الآداب ، وسواهم ٠

ويبـدأ التدوين فى صميم البيـــان بتأليف ابن المعتز (٢٤٧ ــ ٢٩٦ هـ) كتابه « البديع » عام ٢٧٤ هـ ؛ وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهى : الاستعارة ــ التشبيه ــ التجنيس ــ المطابقة ــ رد العجز على الصدر ــ المذهب الكلامى ــ الالتفات ــ الاعتراض ــ الرجوع ــ حسن الخروج ــ تأكيد المدح بما يشــبه الذم ــ تجاهل العارف ــ حسن التضمين ــ التعريض والكناية ــ الافراط فى الصفة ــ لزوم ما لا يلزم ، وهذه الألوان كلها هى موضوع علم البيان والبديع ٠

وبعد ذلك ظهر كتاب نقد الشعر لقدامة ، وقد تكلم فيه عن سر الجمـــال وأسباب القبح فى الشعر وعناصره : اللفظ والمعنى والوزن والقافية ٠ وعرض بسبب ذلك لكثير مما عرض له ابن المعتز ، وزاد عليه أنواعا كثيرة ٠

ثم ظهر نقد النثر ، وهذا الكتاب صورة قوية لفهم مؤلفه للبيان وأقسام الكلام وألوان الأساليب ، مما تأثر فيه بذوقه العربى وثقافته اليونانية معا ٠

أما كتاب الصناعتين لأبى هـــلال المتوفى نحو عام ٣٩٥ هـ ، ففيه تحديد للبلاغة والبيان وأوصافهما وشرح الآراء فيهما ، وذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية وغيرها ٠ وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة الى حد بعيد ٠

---

(١) ٦ و ٧ الصناعتين ٠

ومن الكتب التى تتعرض لبحوث البيان : الموازنة للآمدى ، والوساطة للجرجانى ، واعجاز القرآن للباقلانى ، والعمدة لابن رشيق وهو أكثرها اتصالا بالبلاغة ، وسر الفصاحة لابن سنان ، وهو كتاب جليل فى البيان والنقد والأدب ، مؤلفه هو الأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى (٤٢٢ ــ ٤٦٦ هـ) ٠

- ٢ -

وجاء بعد ذلك ابو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ ٠ فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

١ ــ أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة ، وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع ٠

٢ ــ دلائل الاعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى ٠ كما انه تحدث فيه عن الكناية والتمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات ٠ وهذه البحوث كلها هى عنده علم البيان ٠

ولايزال هذان الكتابان عمدة الباحثين فى البيان العربى حتى الآن ، وهما أهم مصدر للسكاكى المتوفى عام ٦٢٩ هـ فى كتابه المفتاح ، واكثر آراء السكاكى ومذهبه فى البيان مستمد منهما ٠٠ وعلى نهج السكاكى سار الخطيب م ٧٣٩ هـ فى الافادة من عبد القاهر والانتفاع بآرائه فى تقويم البيان العربى ورفع صرحه العلمى السامق ، مما ظهر اثره واضحا جليا فى كتابه «الايضاح» ٠٠ وفى أول عصر النهضة بدأ الاهتمام بكتابى عبد القاهر ينمو ، والاقبال عليهما يزداد ، وذلك بفضل توجيه قائد النهضة الفكرية الحديثة الامام محمد عبده ، وهو الذى أشرف على نشر الكتابين وقام بمراجعتهما ٠

- ٣ -

هذا ويذكر ابن الاثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويقرر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، وأن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا (١) ٠

---

(١) ٢٠ المثل السائر ٠

ويرى باحث محدث انه كان للبلاغة اليونانية اثر في علم البيان العربي (١) ويرى اخر ان ارسطو المعلم الاول للمسلمين في علم البيان (٢) وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني واثروا في البيان وتطوره جلهم أعاجم (٣) ، وان متكلمي المعتزلة بتضلعهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي ، وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد الا بيان عربي واحد كان لايزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو (٤) ، وحتى العربي البحت تأثر باليونان (٥) ٠

وترجم كتاب الخطابة لأرسطو في النصف الثاني من القرن الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي ٠ وكان يجهل كتاب الشعر (٦) ، وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق ٠٠٠ على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور طه حسين يظهر أول مرة في « نقد الشعر » ثم في « نقد النثر » الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة ، ثم يظهر عند عبد القاهر واضحا جليا ٠

وتقول : ان المشتغلين بالفلسفة اليونانية قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان ، واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم في دراسات البلاغة والتاليف فيها ، كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثرا ما في البلاغة العربية (٧) ٠

واذن ففي البيان العربي عناصر ثلاثة : عنصر عربي ، وعنصر فارسي وعنصر يوناني ، ولا شك أن واضعي البيان قد افادوا من هذه العناصر الثلاثة الى حد كبير ٠

---

(١) ٢٧٧ جـ ١ ضحى الاسلام ٠

(٢) ٣١ مقدمة نقد النثر ٠

(٣) ٦ المرجع ٠

(٤) ٨ مقدمة نقد النثر ٠

(٥) ص ١١ المرجع ٠

(٦) ص ٧ المرجع ٠

(٧) يقول ابو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج امثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي الخ ٠

ويقول باحث محدث : يستطيع الباحث أن يقرر مطمئنا أن نشأة البلاغة كانت عربية ؛ لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبي قد اتصل بها فأخذ يؤثر في تطورها ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ؛ حتى اذا اشتد سلطان هذا العنصر صارت فلسفة خالصة على أيدي السكاكي وأصحابه (١) ·

- ٤ -

وبعد ، فان العلماء يختلفون في واضع البيان العربي اختلافا كثيرا :

فبعضهم يذهب الى أن واضعه هو الجاحظ ، الذي كان أول من اهتم به وألف في بحوثه ، وجمع آراء كثيرة فيه في كتابه « البيان والتبيين » وهو الدكتور طه حسين (٢) ومن ذهب مذهبه ·

ويرى البعض أن نشأة البلاغة قديمة وأنها سبقت القرآن وتطورت بعده (٣) · ولا شك أن صاحب هذا الرأي لا يفرق بين البلاغة كفن وبينها كعلم ؛ فلا شك أن الأدب وخواصه الفنية موجودان من قديم ، وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها على أنها علم وقواعد فلم توجد الا بعد القرن الثاني ، « فعلم البلاغة اسلامي لا عهد للجاهليين به » (٤) ، « والبلاغة باعتبارها علما مدروسا ليست من علوم العصر الجاهلي انما هي دراسة متأخرة في نشأتها » (٥) ·

ويذهب باحث محدث الى أن سيبويه امام النحو العربي المتوفى عام ١٨٩ هـ هو الذي بدأ بوضع علم البيان والبلاغة (٦) ·

---

(١) ص ٥٢ البلاغة العربية في دور نشأتها ـ للدكتور سيد نوفل ط ١٩٤٨ ـ مكتبة النهضة ·

(٢) راجع ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين طبع لجنة التأليف ، و ١٧٠ البلاغة العربية في دور نشأتها ·

(٣) ١/٤٨ النثر الفني ·

(٤) ٢٦ تاريخ البلاغة العربية ـ أحمد شعراوي ـ مخطوط بمكتبة كلية اللغة ·

(٥) ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال « خواطر في الأدب العربي » للأستاذ جب ·

(٦) محاضرة القاها الأستاذ أحمد مصطفى المراغي عام ١٩٤٢ ·

ويذهب كثيرون الى أن واضع البيان العربي هو عبد القاهر الجرجاني المتوفي عام ٤٧١ هـ ، ومن هؤلاء صاحب الطراز : على بن حمزة العلوي ، قال في مقدمة كتابه ما نصه :

وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه ؛ الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين ، عبد القاهر الجرجاني ٠

ويذهب آخرون الى أنه السكاكي ، وأنه هو الذي استبد بشرف وضع علم البيان ؛ ويخطيء كثيرون حين ينسبون القول بذلك الى ابن خلدون ، لأن ابن خلدون قال في مقدمته : « وأطلق على الثلاثة ، عند المحدثين ، اسم البيان وهو اسم للصنف الثاني ، لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاءات غير وافية ؛ ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا ، الى أن مخض السكاكي زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه ، على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب ؛ وألف كتابه المفتاح (١) ، فابن خلدون انما يعني أن السكاكي هو الذي هذب مسائل البيان ورتب أبوابه ، مع اعترافه بأن البحث البياني قديم ، والتأليف في مسائله سابق على عصر السكاكي بقرون ؛ فهو يعترف للسكاكي بميزة التهذيب والترتيب لمسائل البيان العربي ، ولم يعترف بأنه هو واضع البيان ؛ وفرق كبير بين الرأيين عند النظر ٠

وفي رأينا أن عبد الله بن المعتز الشاعر العباسي المشهور المتوفي عام ٢٩٦ هـ هو أول مؤلف في البيان والبلاغة ، وذلك بتأليفه كتابه « البديع » ، الذي هو أول عرض لموضوعات علمى البيان والبديع ، بنظام سهل جميل مع الشواهد والأمثلة ، أما الجاحظ فلم يكن له هذا الشرف ، لأن البيان والبلاغة عنده أقوال مفرقة ، وكلمات مروية ، وآراء عامة ؛ وأما عبد القاهر فقد أتى بعد كثير من العلماء الذين أفاد منهم ، وقبس من دراستهم ؛ وأما السكاكي فقد نهج نهج عبد القاهر مع شيء من التفلسف وعمق الافادة من المنطق في دراسة البيان ، ومع التحديد والتقسيم والتبويب والتمييز بين بحوث البيان والمعاني ٠

أما أن ابن المعتز أول مؤلف في علم البديع فبدهي لا يحتاج الى جدل ، وأما أنه أول مؤلف في علم البيان ، فلأنه بحث التشبيه والاستعارة والكناية في كتابه ، وان كان ذلك بوجه اجمالي بسيط ، وأما علم المعاني فليس لابن المعتز ولا لكتابه أثر فيه ٠٠٠ ونحن كذلك لا نسند وضع علم المعاني الى عبد القاهر

---

(١) ٥٥٢ المقدمة لابن خلدون ـ طبع التجارية ٠

لأن دراسته له قد سبقتها دراسات كثيرة من أهمها دراسة : مؤلف نقد النثر ، والآمدي في الموازنة ، وقدامة في نقد الشعر ، والباقلاني في اعجاز القرآن ، وابن سنان في سر الفصاحة ، وابن رشيق في العمدة ٠٠ واذا كانت مباحث علم المعاني عند هؤلاء غير مميزة ، فنستطيع أن نقول انها كذلك عند عبدالقاهر ، وان كان اكثر احاطة وتفصيلا ونقدا وتحليلا : وهي ـ ومثلها دراسات البيان والبديع لم ترتب وتوضع في الصيغة الأخيرة لها الا بجهود السكاكي الذي فهم عبد القاهر فهما بعيدا ، ولقط منه كل شاردة ، وأخذ عنه كل افكاره ، بل أخذ بعض الآراء التي ابطلها عبد القاهر فجعلها رأيا له ، مع الترتيب والتبويب والتنسيق ٠

والباحثون يعترفون بأثر ابن المعتز وكتابه في دراسات البلاغة والبيان : يقول المستشرق كراتشكوفسكي الذي نشر البديع لأول مرة في أوربا ، في مقدمته التي كتبها بالانجليزية للكتاب ؛ مصورا أثره في تاريخ علم البديع : ان لهذا الكتاب أثرا فعالا في تطور هذا الفرع من المعرفة الذي ألف فيه ، وقل من الكتب في موضعه ما يدانيه تأثيرا في الأجيال التي تلته ، بل ندر أن يجد الانسان في كتاب مسألة أساسية ليس لها أصل في كتاب ابن المعتز الذي نهج نهجا جديدا ٠

ويقول باحث محدث : قد أثر الكتاب في تاريخ علوم البلاغة كلها فقد كان البديع لذلك العصر يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها ، وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية ، ولا نستطيع الحكم على مقدار ابتكاره في هذه الفنون والمحاسن ٠ لكن التشبيه والاستعارة والتعريض والكناية ، قد سبق بها ، والمذهب الكلامي منقول عن الجاحظ ، ومهما يكن من شيء فلو لم يكن له من جهد سوى التنظيم والجمع لكفاه ٠

وعلى أي حال فذلك لا يغض من شرف عبد القاهر ومنزلته في البيان العربي ؛ فاننا لا نشك في أن عبد القاهر أسس مدرسة بيانية ، قوامها الذوق وعمق النقد والفهم والتحليل للأدب ، والموازنة بين شتى مأثوراته ، وهو الذي عرض لمسائل البيان بالتفصيل والاطناب والتحليل والتمثيل ، وأفاد منه جميع من أتى بعده من رجال البيان والبلاغة ٠

يقول كاتب (١) : استقر بين العلماء والأدباء ، ليس ابن خلدون ، أن الامام عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس البلاغة العربية ، وأول من أقام

---

(١) هو الأستاذ رياض هلال من كلمة نشرها بمجلة الأزهر ٠

عمدها ، ووضع لها الصوى والاعلام ، وأخذ بضبعيها ، وأناف بها على اليفاع وسن لها رسوما وقوانين تعرج عليها ، بأسلوب لا يقوم بفصاحته لسان ، قال السيد يحيى بن حمزة الحسيني صاحب « الطراز في علوم حقائق الاعجاز » في فاتحة كتابه هذا ، وهو من هو علما وفضلا : « وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب افانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني · فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهو من صور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح ازاهره من اكمامها ، وفتق ازاهره بعد استغلاقها واستبهامها ، وله من المصنفات فيه كتابان : أحدهما لقبه بدلائل الاعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم اقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما ، وشدة اعجابي بهما ، الا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما » ·· وغير صاحب الطراز ممن يعتقدون أن عبد القاهر هو مؤسس فن البلاغة كثير ، وان لهم من كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، لدليلا أي دليل ، وحجة ليس بعدها من حجة ، تصحح ما ذهبوا اليه ، وتقنع كل جاحد مباهت ، ولكنا نسائلهم : هل ابتكر عبد القاهر كل هذه المباحث ابتكارا ، وارتجلها ارتجالا ، فهو ابن بجدتها وأبو عذرها ؟· وانا لنعفيهم من الاجابة فنقول : ان عبد القاهر وجد لمن سبقه من العلماء والأدباء بحوثا وآراء في البيان العربي متفرقات في أثناء كتب النقد والأدب ، فعمد اليها ولم شملها وجمع شتاتها ، وضم الالف الى اليفه ، والنسيب الى نسيبه ، فكان له من كل ذلك مجموعة ضمنها كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، وهو تارة يقر بالفضل لأربابه فيصرح بأسمائهم ، وتارة يغفلهم ويضرب عنهم صفحا ، فيظن بعض الناس أن المبحث من بنات افكاره وكد ذهنه وعرق جبينه ، ولو علموا لرجعوا كل شيء الى اربابه ، واقروا الأمر في نصابه · ولسنا ننكر أن عبد القاهر قد ابتكر في البيان العربي وارتجل في ابحاثه ، كما لا نجحد أنه فصل بعض ما أجمله العلماء قبله ، وشرح بعض ما قالوه ، ونوع الأمثلة ، وأتى بأمداد من الشعر والنثر متوافرة ؛ ولكنا ننكر أن يكون هو مؤسس فن البلاغة برغم ما يقوله صاحب الطراز ؛ وعبد القاهر نفسه يقر بأنه أفاد ممن تقدمه ممن كتبوا في البلاغة والفصاحة ، وينعى على الناس عدم تدبرهم لكلام العلماء وانعامهم النظر فيه ، حتى أدخلوا الضيم على علم الفصاحة والبلاغة فيقول في « دلائل الاعجاز » (١) : اعلم أنك لاترى في الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بديئا وأخيرا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبلاغة ، أما البديء فهو أنك لا ترى نوعا من انواع العلوم الا واذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس ، وجدت العبارة فيه أكثر من الاشارة والتصريح أغلب من التلويح ،

---

(١) ص ٣٤٩ ·

والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا ، فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزا ووحيا ، وكناية وتعريضا ، وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وادق النظر • ومن يرجع من طبعه الى ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها الى الخفى ، حتى كان بسلا حراما أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها ، وبادية الصفحة لا حجاب دونها •• وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عنه بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة ، فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدماء ، وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا ، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيرا يصح » •• وسنرى أن عبد القاهر قد أسرف فى دعواه أن العلماء لم يتجاوزوا التلميح الى التصريح والاشارة الى العبارة فى مسائل البلاغة والفصاحة ؛ وانه فى كثير من المباحث لم يزد على ما قالوه الا فى الأمثلة والشواهد •

— ٥ —

وقد عرض الأستاذ أحمد المراغى فى كتابه « بحوث وآراء فى البلاغة » لعبد القاهر : فذكر رأى عبد القاهر فى الفصاحة والبلاغة وهل يرجعان الى اللفظ أو الى المعنى (١) ، ثم ذكر أثر عبد القاهر فى بناء البلاغة العربية وقال : وفى الحق أن كتابيه يعدان أول المؤلفات العلمية فى هذه الفنون ، بما اشتملا عليه من التحقيق العلمى للمسائل التى تناولها فى عرض كلامه ، وبما سلك فيهما من نهج أدبى مقرون بتدقيق منطقى بديع ؛ مع بقاء الأسلوب الأدبى ظاهرا لم تشبه هجنة ، فلا غرو أن قيل ان أول من وضع هذه الفنون عبد القاهر الجرجانى • كما أن من الحق أن نقول أيضا : ان عبد القاهر بوضعه هذين الكتابين أوجد علوم البلاغة كاملة فكل من جاء بعده قبس من نور علمه ، وما لم يتعرض له من مسائلها وزادوه فيها بعده ، فهو قشور ، تركها لا يضير الأديب (٢) •

---

(١) ص ١٠ — ٣٨ المرجع ط ١٩٤٠ •

(٢) ص ٥٨ المرجع ، ويقول فى موضع آخر عن عبد القاهر : « أحيا موات هذا العلم ، وأنشأ فيه نهضة جديدة ، واستعار شيئا من التحقيق العلمى والبحث الفلسفى لاثبات مسائل هذا العلم ، باسراف حينا واقتصاد حينا آخر ، مع بقاء الصبغة الأدبية سليمة لا يعتورها وهن ولا ضعف (ص ٦٠ المرجع) •

وقال في موضع آخر : وفي الحق أن هذا البيان كان وليد احتكاك العرب والعجم الذين حذقوا لغاتهم واللغة العربية ، ونتاجا لازدواج هاتيك اللغات بعضها ببعض · ولم يكن بالعربي البحت الذى أنتجته القرائح العربية الخالصة ، فتاريخ الأدب حافل بأسماء الأدباء والكتاب من الموالي الذين كان يشار اليهم بالبنان في رقي الأدب » (١) ·

ويقول عن كتابي عبد القاهر : أسلوبه فيهما يجمع بين الطريقتين : ففيه قوة الجدل المنطقي ، وله المعرفة باصطلاح الفلاسفة والمتكلمين ، الى الروح الأدبي والقدرة على النقد وصنعة الكلام ، الا أن أسلوبه في دلائل الاعجاز أميل الى طريقة المتكلمين ، بينما تراه في « أسرار البلاغة » عربي الأسلوب ، وفي تعبيره رونق وطلاوة ، مع سهولة وجزالة ، وعذوبة وسلاسة الى قوة الشكيمة في الحجاج ، وتمام الآلة في الجدال ، مع ميل الى الأسلوب والبسط فيما يريد اثباته من القضايا ، واحالة للمخاطب على الذوق وادراك الجمال الفني بنفسه ، ويصل الى ما قد وصل الى ادراكه بعد طول البحث والاختيار » (٢) ·

ويقول الدكتور طه حسين في مقدمة كتاب نقد النثر ما نصه : لم تلق « خطابة » ابن سينا ولا « شعره » ــ وهما شرح وتحليل لفلسفة أرسطو ولآرائه في الخطابة والشعر ، وقد جعلها ابن سينا من فنون كتابه « الشفاء » ــ قبولا لدى الفلاسفة الذين جاءوا من بعده ·

على أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثا ، لقد عرب كتاب « الخطابة » ــ لأرسطو ــ اذا صح هذا التعبير ، وجعله في متناول الفكر العربي ، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين : العربي ، واليوناني ــ اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا ·

وقد تحقق هذا التوفيق في القرن الخامس على يدي عبد القاهر الجرجاني (٣) :

صنف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب في البيان العربي هما : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ·

---

(١) ٥٥ المرجع ·
(٢) ص ١٢٩ و ١٣٠ المرجع ·
(٣) ص ٢٨ مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين طبعة سنة ١٩٣٩ بالقاهرة ·

فعندما نقرأ أولهما تكاد تجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذي عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيرا ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع أنه درس « الحقيقة » و « المجاز » ، فتبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه ، ويجلو غامضه ؛ وقسم المجاز الى نوعين : لغوى وعقلى ؛ ثم قسم اللغوى الى قسمين : أحدهما يقوم على التشبيه وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما ٠٠ وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذي يجيز اطلاق اسم الجنس على النوع ، واسم النوع على الجنس ، واسم النوع على نوع آخر ؛ فمجاز أرسطو هذا هو ما يسميه عبد القاهر « مجازا مرسلا » ، وأما المجاز الذي يقوم على التشبيه والذي يسميه أرسطو « صورة » فيسميه عبد القاهر « استعارة » ، وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه ٠ ولكى يقرر عبد القاهر مذهبه هذا ، فانه يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق اليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال عن الحدود التي رسمها أرسطو ٠ أما المجاز العقلى فهو من ابتكار عبد القاهر ، ويصح أن نسميه « المجاز الكلامي » لأنك اذا قلت مع عبد القاهر « أنبت الربيع البقل » فهذا مجاز ، لأن الربيع لا ينبت البقل ، ولكن الذي ينبته هو الله تعالى ٠ وينفق عبد القاهر جهدا غير قليل في الدفاع عن مجازه هذا وفى تمييزه عن المجاز المعروف ٠ ولكن لا شك أن الأساس الذي يبنى عليه هذا التمييز محل للنظر (١) ٠

أما كتاب « دلائل الاعجاز » فيحاول فيه عبد القاهر أن يثبت اعجاز القرآن ، وهو أمر جعله علماء الكلام الغرض من البيان من عهد بعيد ، ولكى يصل عبد القاهر الى هذه الغاية أيد بحثه بنقض نظريتين قديمتين :

احداهما : تجعل جمال الكلام في اللفظ ٠

والأخرى : تجعله في المعنى ٠

ثم ينتهى به البحث الى أن الجمال ليس في اللفظ ولا في المعنى ، وانما هو فى نظم الكلام ، أى في الأسلوب ، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته ، فيدرس الجملة بالتفصيل : منفردة ومتصلة ؛ ويضطره البحث الى الكلام على أهمية حروف العطف ، وقيمة الايجاز والاطناب ، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ٠ وبذلك يضع أساس « علم المعانى » المشهور ٠

---

(١) ص ٢٩ المرجع السابق ٠

ولا يسع من يقرأ « دلائل الاعجاز » الا أن يعترف بما أنفق عبد القاهر من جهد صادق خصب في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة ، والأسلوب ، والفصول · وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقا يدعو الى الاعجاب · واذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقا ، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه (١) ·

البلاغة العربية في العصر الحديث :

تعددت المذاهب الأدبية في العصر الحديث ، وتعددت معها فى أذهان المعاصرين المفاهيم البيانية ، ودعوا دعوات كثيرة حول البلاغة ، دعا البعض الى الاهتمام بالمضمون ، والى مذهب الالتزام فى الأدب ، ودعا آخرون الى العناية بالشكل والصورة ، ودعا الزيات الى التوازن بين هذين العنصرين (٢) ، ودعا سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية » الى العامية والى نبذ البلاغة القديمة التي سماها بلاغة الانفعال والعاطفة ، داعيا الى ما سماه بلاغة المنطق، أى أن يكون المنطق لا اللغة أساس البلاغة ·

والف الزيات كتابه « دفاع عن البلاغة » · رأى فيه أن البلاغة العربية تلاقى ثلاث صعوبات هى : الصحافة ، والسرعة ، والتطفل أى تطفل بعض ذوى الجاه على الأدب ، وحدد البلاغة بانها ملكة يؤثر بها صاحبها فى عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام ، ورأى أن البلاغة لا تفصل بين العقل ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل ، ورأى أن الفكرة والصورة والأسلوب كل لا يتجزأ ، وأن الأسلوب مركب من عناصر هى الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة ، وأشار الى قضية اللفظ والمعنى ، وذهب مذهب أنصار الصياغة ؛ ورجع صفات الأسلوب الى ثلاثة : الأصالة ، الوجازة ، التلاؤم أو الموسيقية ·

والف الأستاذ محمد عرفة كتابه « مشكلة اللغة العربية » ، حيث رأى فيه أن نعمل على أن تكون العربية هى لغة البيت والمدرسة والشارع عن طريق بعث ملكتها فى نفس التلاميذ الصغار بالحفظ للنصوص الأدبية المختارة ، لا بالاعتماد على القواعد الجافة ·

والف أحمد الشايب كتابه الأسلوب الذى دعا فيه الى العناية بدراسة الأسلوب وخصائصه ، ودراسات الأسلوب تبدأ بدراسة الكلمة والصورة

---

(١) ص ٣٠ من المرجع نفسه ·

(٢) ٤ : ٤٢ وحى الرسالة ·

والجملة والفقرة والعبارة ، وعلم المعاني عنده يدخل في بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب علم البديع يدخل في باب الصورة ٠ كما دعا الى دراسة الفنون الأدبية من قصة ومقالة ووصف ورسالة ومناظرة وتاريخ ، وجعل صفات الأسلوب هي : الوضوح ، والقوة والجمال ، وجاراه قليلا طه حسين وغيره في كتابهم المدرسي البلاغة الواضحة ٠

وجاء أمين الخولي فألف كتابه « فن القول » محاولة منه لمنهج بلاغي جديد ، وفن القول عنده هو البلاغة بلغة العلماء القدامى والمحدثين ، وفي هذا الكتاب يدعو الى دراسة فن القول وعلاقته بعلوم الفلسفة والجمال والنفس ، وتبدأ الدراسة بالكلمة ، ثم الجملة ، ثم الفقرة ، ثم تدرس صور التعبير التي قسمها قسمين :

١ ــ صور الايضاح المعلن وهي : التشبيه ــ الاستعارة ــ المجاز ــ الكناية ــ التجريد ــ القلب ــ أسلوب الحكيم ــ المبالغة ــ تأكيد المدح ــ التدبيج ــ التهكم ــ التجاهل ــ الفكاهة ٠

٢ ــ صور التعبير المظللة من رمز وايماء والغاز وتورية واستخدام واتساع ٠

ثم تدرس البلاغة في القطعة الأدبية ، ثم البلاغة في الأساليب الفنية في الأدب ٠

وقد سار الأزهر على منهج البلاغة القديمة ، وعلى هذا المنهج ألفت كتب كثيرة في البلاغة ، منها : البلاغة الواضحة للجارم ، والبلاغة العربية لخفاجي، والبلاغة لعوني ، والبلاغة للمراغي ، وغيرها ٠

وقد حاول الامام محمد عبده تجديد دراسات البلاغة من قبل في الأزهر بتدريسه لكتابي عبد القاهر (الأسرار ، والدلائل) ٠

نحو بلاغة جديدة :

وحين نقدم هذا الكتاب ، فاننا نريد أن ندرس مواضع الاتصال والانفصال في البلاغة العربية بين القديم والجديد ٠٠ ذلك أن البلاغة الجديدة ترتبط بخطى التقدم الانساني السريعة ، والتحكم في الطاقات الهائلة ٠٠ ولذلك فان هذه البلاغة الجديدة تعبر عن حاجة العصر الى لغة اتصالية جديدة ٠

وليست البلاغة الجديدة المنشودة منفصلة عن النظريات القديمة ، كما انها ليست عرضا لتاريخ العلوم التطبيقية على المجال الانسانى ، ولكنها استجابة شرطية ، لما افادته اللغة الفنية من طاقات جديدة ، ولعل برنارد شو « وهو قرين « ويلز » فى أدب الأجيال الماضية ، من الرواد الذين فطنوا أيضا الى وجوب البحث فى التراكيب اللغوية ، لكى يساير الهجاء مقتضيات الحياة ولكى يصور فى الوقت نفسه الواقع اللغوى ، الذى لا تحكيه الحروف الهجائية حكاية تامة ، فالاختلاف بين الجماعات والطبقات ، على المخارج والأصوات ، شائع وبديهى ولابد من الوصول الى رموز ، فى حروف الطباعة والآلات الكاتبة ، تصور ذلك الواقع اللغوى ولابد فى الوقت نفسه من الاتكاء على الاختزال ، افادة من الوقت الضائع سدى فى الاملاء ــ والتدوين والطباعة ٠ وفطن « شو » (١) أيضا الى أن رجال الأعمال مالوا عن الأوامر المدونة الى الأوامر المكبرة صوتيا ، أو المسجلة بواقعها الصوتى وكاد يمس ما استشعرت الحياة انها فى حاجة اليه ، وهو بلاغة جديدة ٠

وقد اهتم عصرنا أخيرا بهذه البلاغة الجديدة ودراسة اللغة ذاتها وتاثيرها فى تنظيم حياتنا اليومية ، بحيث أن الأمر ــ كما يقول ماكلوهان ــ ينتهى بالمجتمع الى أن يشبه صورة أو صدى لغويا لقواعد اللغة ٠ ويقول : ان هذه الحقيقة اقلقت الحزب الشيوعى الروسى قلقا شديدا ٠ فبالنسبة لجدلية ماركسية مرتبطة بفكرة أن التكنولوجيا الصناعية للقرن التاسع عشر هى أساس زوال الطبقات « لا شىء يبدو اكثر هدما من الفكرة التى تقول بأن الوسائل اللغوية تستطيع تشكيل التطور الاجتماعى ، على الأقل بقدر ما تفعل وسائل الانتاج » ٠

ويذهب الى أن الأشخاص الذين يديرون الوسائل لحساب أصحابها ، لهم ميل غريب للاهتمام ببرنامج أو بمحتوى الراديو أو الصحف أو الأفلام ٠ أما أصحاب الوسائل فينصب اهتمامهم على الوسائل فى ذاتها ، انهم يهتمون على الأخص « برغبات الجمهور » وهى صيغة عامة غامضة للغاية ٠ ان أصحاب الوسائل يدركون الوسائل كقوة ، ويعلمون أن هذه القوة لا تهتم « بالمضمون » او الوسيلة داخل الوسيلة ٠

وعندما بدأت الصحافة تدق على كل أوتار اهتمام الناس باترايهم بعد أن أدى البرق (التلغراف) الى اعادة بنيتها ، قضت الجريدة على المسرح تماما ٠ كما فعل التليفزيون بعد ذلك نفس الشىء مع السينما والنوادى الليلية ٠ وقد

---

(١) دكتور عبد الحميد يونس : « اللغة الفنية » ــ عالم الفكر ــ الكويت٠

كان لبرنارد شو من الذكاء وقوة التخيل ما مكنه من المقاومة فوضع الصحافة على خشبة المسرح • واستخدم في المسرح المجادلات العزيزة على الصحف وأسلوبها في الاهتمام بكل ما هو انساني ، على نحو ما فعل ديكنز في الرواية• أما السينما فقد حلت محل الرواية والصحافة والمسرح في وقت معا • ثم جاء التليفزيون وأعاد المسرح الشامل الى الجمهور •

ان الاحساس بالحاجة الى لغة فنية جديدة أو بلاغة جديدة قد اشتد بعد ظهور السينما الصامتة ، اذ كان من المفروض أن يتحول المسموع الى منظور ، وأن يستغنى المتذوق عن الكلام ، بما يشاهده من الاشارات والحركات من الصور ومن الرموز • ولقد حاول هذا الفن الصامت أن يوصل البلاغة الجديدة الخاصة به ، فلكل قسمة من القسمات معنى ، ولكل ايماءة دلالة ، ومع ذلك فان سياق الحركات وعدم القدرة على معاودة التأمل في الصورة المتحركة ، قد جعل بلاغة السينما الصامتة قاصرة عن الوفاء بحاجات المشاهد ، الى استخلاص المعاني بتفاصيلها ، والمشاعر بأبعادها ، ومن أجل ذلك اقترن التدوين بالصورة المتحركة •• اقترن بها شرحا وتوضيحا واعلاما • ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد أحس القوامون على الصورة المتحركة الصامتة ، بأن جماهير المشاهدين لا يقتنعون بالمنظور على هذا النحو ، وكان من الضروري أن تتوسل البلاغة الجديدة المنظورة بالكتابة ، فسجل الحوار لكى يستكمل المتذوق متعته من هذه البلاغة الجديدة (١) •

ذلك أن الاحساس بوطأة الصورة الصامتة واقترانها بالكلام المدون ، قد خف ، عندما تم التزاوج بين الصورة والصوت ، وظهرت السينما الناطقة ، وتحول تسجيل الصورة من الأشكال والرموز والحركات والامارات ، الدالة بذاتها على المشاعر والمواقف ، الى اتجاه شبه واقعي ، لأن الفن الجديد يتوسل بالصوت والصورة معا ، ولم يعد المتذوق في حاجة الى القراءة ببصره ، ولم يعد كذلك مطالبا بينه وبين نفسه بتفسير لتفاصيل الحركة وأصبح مثله مثل المشاهد لمسرحية ، بيد أن السينما الناطقة لم تستكمل مقومات بلاغتها الجديدة في المراحل الأولى ، لأنها لم تتخلص تماما من أسلوب الصورة الصامتة ، ولأنها استعارت بلا روية ، أسلوب التمثيل المسرحي ، في الحركة والحوار ، وفي جمود المنظر وثبات المشهد أمام النظارة ، كما أن المرحلة الأولى من البلاغة السينمائية — اذا صح هذا الوصف — حاولت أن تقترض وسيلة العرض للأغاني وبعض الصور الطبيعية ، فيما يشبه « الألبوم » (٢) ، أي أنها كانت مستقلة أو شبه مستقلة ، واتخذت مكانا من السياق برابطة غير عضوية •

(١ ، ٢) المرجع السابق ص ٥٨ •

ويبدو أن الباحث على اتخاذ هـذه الطريقة هـو الافادة المزدوجة من العمـل الفني ، فهو يوحي بالتـكامل في سياق الفيـلم ، ويمـكن في الوقت نفسه ان ينتزع ، لكي يتذوقه جمهور آخر ، لا علاقة له بالقصة السينمائية ، ومن المهم أن يسجل هنا أن البلاغة الجديدة في تلك المرحـلة ، لم تكن قد اكتشفت بيـد أن العمـل السينمائي يمكن أن يصبح فنا مستكملا لمقومات اللغـة الفنية ، وان « السيناريو » عبارة عن كائن عضوى حي ، له وحدته ومناهج نموه وله مساره المتكامل ، الذي لا يعرف الاجتزاء ·

ويذهب ماكلوهان الى ان الوسائل ، كامتـداد لحواسّنا ، تقيم عـلاقات جديدة ليس فقط بين حواسنا ، ولكن فيما بينها هي ايضا ، عندما يؤثر بعضها في بعض · فالجنس الاذاعي المسموع غير شكل نشرة الأخبار بنفس الطريقة التي غير بها شكل الصورة في الجنس السينمائي الناطق · كما أن الجنس التليفزيوني أحدث تغييرات جذرية في برامج الجنس الاذاعي المسموع ، وفي شكل الرواية التسجيلية أو الوصفية ·

والشعراء والرسامون هم الذين يستجيبون استجابة فورية لوسيلة جديدة كالراديو والتليفزيون ، فالراديو والجرامفون والشريط المسجل أعادت لنا صوت الشاعر باعتباره بعدا هاما في التجربة الشعرية · وعادت الكلمات مرة أخرى لكي تصبح نوعا من الرسم بالأشياء · ولكن التليفزيون بما يتطلبه من مشاركة عميقة ، أدى بالشعراء الشـبان فجأة الى أن يقـدموا أشعارهم في المقـاهي والحدائق العامة وفي أي مكـان · فظهـور التليفزيون جعلهم يحسون فجأة بالرغبة في الاتصال الشخصي بجمهورهم ·

ويرى ماكلوهان كذلك ان الفنانين اليوم في مقدورهم تصنيف وجبتهم من الوسائل التي يصنفون بها برنامج مطالعـاتهم ، فالشـاعر ييتس Yeats استغل الى أبعد حد ثقافة الفلاحين الشفوية في تهيئـة مؤثراته الأدبيـة · والاستخدام الذكي لأشكال السينما وموسيقى الجاز ، أتاح لاليوت Eliot في وقت مبكر ، أن يؤثر تأثيرا قويا · فقصيدته « أغنية حب لألفريد بروفرك » تستمد معظم قوتها من تداخل شكل السينما ولغة الجاز في بعضها البعض · وقد وصل هذا المزج الى قمة التأثير في قصيدته « الأرض اليباب » ولم يقتصر في قصيدة بروفرك على استخدامه للشـكل السينماتوغراف ، ولكنه استخدم الخط الأساسي لأفلام شارلي شابلن ، على نحو ما فعل جيمس جويس Joues في « أوليس » فشخصية بلوم Bloom نقلها جويس نقلا صريحا من شابلن (وقد سماه « شورقي شابلن » في قصيدته صحوة الفينيجان ، أو « اليقظة القبلية » وشابلن بدوره — مثله مثل شوبان الذى وافق البيانو على أسلوب الباليه — قد اكتشف مزيجا رائعا من الباليه والسينما حيث يتناوب تخطر البطة والنشوة

الباقلوفية ــ نسبة الى راقصة الباليه المشهورة « باقلوفا » ــ فقــد وفق بين خطوات الباليه التقليدية وبين الايماء السينمائي حيث تتلاقى فى نسب عابثة ، السخرية والغنـائية على نحو ما نراه أيضـــا فى « بروفروك » و « آوليس » والفنانون فى مختلف المجالات هم دائما أول من يكتشف كي فيمكن لوسيلة ما أن تستخدم أو تطلق طاقة وسيلة أخـرى · وبشكل أبسط هى الطريقـــة التى استخدمها الممثل الفرنسى شارل بوابيه ليعد مذبحه الفرنسى الأمريكى ·

فالكتاب المطبوع شجع الفنانين على اعادة كل أشكال التعبير ما أمكن الى الحد الوصفى والروائى الأوحـد للكلمة المطبوعة · وان ظهـور وسائل الاتصال الكهربائية قد حرر الفن على الفور من هذا القيد خالقا عوالم بول كلى Klee وبيكاسو ، وبراك Braque ، وايزنشتين Eisenstein والخـوان ماركس وجيمس جويس ·

وعندما طبقت طريقة السيناريو ، أو التقـارير المصورة ، على المقـــال الافتتاحى اكتشفت صحافة المجلات شكلا هجينا انهى عصر الخبر ·· فالتهجين، أو التقاء وسيلتى اتصال ــ كما يذهب الى ذلك ماكلوهان ــ هو لحظة صـدق واكتشاف تؤدى الى أشكال جديدة ·· ذلك أن التوازن بين وسيلتين يمسكنا عند حدود الأشكال وينتزعنا من التبلـد النرجسى · فلحظة تلاقيهمـا تحررنا وتخلصنا من الخدر والرعدة اللذين تفرضهما هذه الوسائل على حواسنا ·

ولقد بالغ البعض فى تأثير الصورة والصوت على الكتابة والطباعة ، وتخيلوا أن عصر التدوين على النهج القديم قد انتهى ، وأن اللغة اللســانية تستعيد مكانتها ، وتعود الى طبيعتها المجهورة ، بكل مـا فى الصوت من نبر وايقاع ، وان الصورة تتخذ بدورها مكانها ، الى جانب اللسان · ويذكـر بعض الدارسين (١) أن هذه الجارحة كانت أكثر وسائل الاتصال مرونة ، لأنها تستطيع أن تسجل الصور الحسية على اختلافها · أن تحكى أو ترمز أو تشير الى الصورة البصرية والشمية والذوقية ، الى جانب الصور الصوتيـة بطبيعة الحال ·

واستند المبالغون الى اتجاهات ، ظهرت فى واقع الحياة اليومية ، منهـا أن تسجيل الصوت أخـذ يحـل على الأيام ، محل الكتـابة · وبرزت الأوامر الصوتية والرسائل الصوتية والرموز الصوتية أيضا · وقيل ان هذه التسجيلات الصوتية كانت فى بعض المحاكم الأجنبيـة ، مستندات لهـا نفس القيمة التى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ ·

للمستندات الخطية · وأعان على تقوية هذه البلاغة الجديدة ، حتى فى الحياة اليومية التقدم الباهر فى أجهزة تسجيل الصوت ، وتطويعها لحاجات الناس ، على اختلاف البيئات والظروف · واصبح من المألوف أن يحصل المرء على مختارات من الشعر ، بصوت الشعراء الذين أبدعوها ، تماما كما يحصل على مثل تلك المنتخبات مطبوعة فى كتاب والمهم فى هذه الظاهرة (١) :

أولا : ان الصوت البشرى له من التاثير ما ليس للرموز المسجلة له ، أيا كانت قوة الرمز ، وأيا كانت قدرة القارىء على تمثل الصوت ·

ثانيا : ان صوت الشاعر نفسه يحكى الخلجات النفسية وظلال المعانى ، التى لا تبديها القراءة ، ومن هنا ظهرت شخصية الشاعر ، ببصماتها الواضحة، وبتاثيرها المباشر على المتذوقين لشعره ·

واستحدث الجنس الاذاعى المسموع أيضا آثارا حاسمة فى عالم الفنون ، وغير من مناهج البلاغة والتقويم ، وأصبحت الاذاعة كالسينما تعتمد على أساليب خاصة فى الكتابة اليها ، مع فارق واضح بينها وبين الصورة المتحركة الناطقة ، من ناحية الجماهير التى تفيد من البلاغة الجديدة ، ذلك لأن السينما تشبه المسرح ، من حيث ان الجمهور يحتشد فى صعيد واحد لتلقى الفن والتفاعل معه ، أى أن العقلية الجماعية تتغلب الى حد ما على العقلية الفردية، ويقتضى ذلك توقيتا محكما للعروض ، كما يقتضى اطارا معينا وسياقا زمنيا ، لا ينبغى تجاوزه الا بالحد المعقول · أما الاذاعة فالمستمعون اليها فرادى ، ولو اجتمعوا ، ففى أماكن اختاروها ولم تفرض عليهم ، ومعنى هذه الحقيقة أن الفرد تغلب على عقليته ، ولا يذوب تماما فى العقلية الجماعية لجمهور المشاهدين ، ولذلك يتسم الاعلام الاذاعى بأنه موجه الى افراد ··· انه يختلف عن الخطبة ، ويختلف عن الحوار فى المسرحية أو الفيلم ، مع الاعتراف بمقتضيات التحول من بلاغة لها قواعدها ، الى أخرى لها شخصيات أخرى ، ففى هذه المراحل نجد أن الاذاعة تنقل مناهج المسرح والسينما فى الأحاديث المباشرة والحوار ، ولا تتخلص من منصة الخطيب والمعلم ، بيد أنها تفيد من تجاربها ، مثلها فى ذلك مثل أجناس الاعلام الأخرى ، وتتخلص من أسلوب الأجناس التى سبقتها ، ولاتزال تعاصرها ، وتنشىء بلاغة خاصة بها ، تلتزم أصولا وقواعد ، أثمرتها طاقة هذا الوعاء ، وطبيعة اللغة الانسانية ، الى جانب الرموز والمؤثرات والزخارف الصوتية الأخرى ·

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ ·

ولا نستطيع أن نذهب الى أن « التليفزيون » هو خاتمة المطاف بين هـذه الوسائل الاعلامية ، وانه صاحب الكلمة الحاسمة فى البلاغة الجديدة ــ التى استثمرتها الحياة بفضل التقدم الباهر فى الطاقة والحركة ، وانتاج الوسائل الاعلامية · والتليفزيون يعتمد على ما يسمى بالشاشة الصغيرة ، وهو يجمع المسموع الى المنظور ، أو يستغل الصوت والصورة ، وانه يفضل الاذاعة من هذه الناحية ويشبه السينما من ناحية المنهج ، ولكنه يختلف عنها فى أن مـا يعرض يقدم الى الناس ، حيث هم ، فينتقل اليهم ، ولا يكلفهم مشقة الانتقـال اليه ، وهو يوجه الى الأفراد فى اطارهم الاجتماعى والقومى ، ولكنه ، بحكم ارتكازه على المنظور فى المقام الأول ، يقتضى من المتلقين له موقفا سلبيا ، فهو ليس كالراديو ينقل الثقافة والاعلام حتى للعاملين فى المصانع والمزارع والدكاكين ·· انه يتطلب استغراقا كـاملا أو شبه كـــامل ، لتتم الافادة من عروضه · والتليفزيون ، على خطره ومكانته ، قد حول الناس من الحركة الى السكون ، وان غشيان المسرح أو السينما انما يكون فى وقت محدد ، وعادة الذهاب الى دور التمثيل أو العروض السينمائية وغيرها لا تتحقق الا فى مواقيت الراحة ، وليست فى كل يوم ، ومع ذلك فهـــذا الجنس الاعلامى من أقوى الأجنـــاس الاعـــلامية ، لأنه ينتزع الصورة والصوت ، ويوزعها على النـــاس فى بيئـة متسعة ، ولاتزال هناك خطوات فسيحة يخطوها التليفزيون ، حتى يقترب من طاقة الراديو على طى المكان ، وخاصة بعد استخدام اقمـــار الاتصالات · ومن مآثر هذا الجنس الاعلامى أنه بعث أشكالا فنية وأدبية ، كان مقدرا لهـــا أن تضمحل وتذوى ، وعلى رأس هذه الفنون الرقص التعبيرى ، كمـا أنه أتاح للتمثيليـــات المسرحية والسينمائية جمهورا أوسع ، الى جـــانب التمثيـليات الخاصة به · بحيث يمكن أن يقال أن هذا الجنس الاعلامى قد استحدث بدوره بلاغة جديدة ، وهى وان اقتربت من البـــلاغة السينمائية الا انهـــا تستهدف العقلية الفردية ، أكثر من استهدافها للعقلية الجماعية (١) ·

ويذهب جان بول سارتر (٢) الى أننا « نتصل بالناس حتى دون أن نريد هذا الاتصال ــ بوسائل جديدة ، ومن زوايا انعكاس جديدة ــ نعم يظل الكتاب بمثابة فرقة المشاة الثقيلة التى تنظف البقعة وتحتلها ، ولكن لدى الأدب قذائف موجهة تذهب بعيدا وتقلق وتزعج دون أن تكون هى الفاصلة فى الأمر · وأولها الصحيفة · والمؤلف الذى كان يكتب لعشرة آلاف قارىء ــ اذا أعطى صحيفة النقـد فى مجلة أسبوعية ــ أصبح له ثلاثمـــائة ألف قارىء ، حتى لو كـــانت مقالاته لا تساوى شيئا · ثم يأتى بعد ذلك المذياع فقد منعت رقابة المسرح فى

---

(١) نفس المرجع ص ٦٢ ·
(٢) الأدب (ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال) ص ٧٤ ·

انجلترا تمثيل مسرحية من مسرحيات سارتر : « جلسة سرية » ولكنها انبعث أربع مرات من دار هيئة الاذاعة البريطانية · وعلى المسرح اللندني لم تكن لتحوز – حتى فى حال افتراض نجاح غير محتمل – أكثر من عشرين الى ثلاثين الف متفرج · فزودته الاذاعة المسرحية لهيئة الاذاعة البريطانية – عن طريق آلى – بنصف مليون مستمع ، وأخيرا دار الخيالة (السينما) اذ يتردد عليها فى الدور الفرنسية أربعة مليون شخص · واذا تذكرنا أن « بول سوداى » الناقد الدائم لجريدة الطامب Temps من سنة ١٩١٢ – ١٩٢٩ كان يلوم أندريه جيد فى مطلع القرن الحالى على نشره كتبه فى طبعات محدودة فان نجاح قصته « السيمفونية الريفية » فى دار الخيالة ، ييسر لنا أن نقيس الطريق الذى سادت فيه » ·

ويذهب سارتر (١) كذلك الى ضرورة لجوء الكتاب والأدباء الى وسائل جديدة الى جانب الكتاب ، وهى موجودة سلفا ، وهى التى وسمها الأمريكيون باسم الوسائل الجماهيرية ·· « وهى السبل الحقيقية لنحصل على الجمهور الامكانى : الصحيفة والمذياع ، ودار الخيالة · طبعا علينا أن نكبت وساوسنا : فمن المؤكد أن الكتاب انبل أشكال الادب واقدمها ، ومن المؤكد أن علينا دائما أن نرجع اليه · ولكن يوجد فن أدبى للمذياع ولشريط الخيالة وللمقالات الرئيسية والاستطلاع الصحفى ولسنا فى حاجة مطلقا ، الى الهبوط بمستوى الأدب فى سبيل شعبيته ، فدار الخيالة تتحدث أصلا الى الجماهير ، وتحدثهم عن الجماهير ومصيرها ، والمذياع يفاجىء الناس على المائدة وفى أسرتهم ، فى اللحظة التى هم فيها أضعف مقاومة ، وفى حال الاستسلام للخلوة استسلاما يكاد يكون عضويا ، والمذياع اليوم يستفيد من ذلك فى خداعهم ، ولكن هذه هى اللحظات التى تمكن فيها الاهابة بحسن نيتهم ، فيما اذا كانوا لا يقومون – بعد – بدورهم ، كما تفرضه عليهم شخصيتهم ، أو قد كفوا عن القيام به · ولنا فى هذا الميدان قدم ، فعلينا أن نتعلم كيف نتحدث فى صور ، وكيف ننقل الأفكار من كتبنا الى هذه اللهجات الجديدة ·

ولا يقصد سارتر أن يدع المبدعون كتبهم ليحورها غيرهم · ويعرضها على لوحة العرض فى دار الخيالة أو فى اذاعات الراديو ، بل يجب أن يكتب هؤلاء مباشرة للخيالة ولموجات الاذاعة · وفى ذلك ما يتيح لهم الايحاء للجمهور بمطالبه الخاصة ، والارتفاع به قليلا قليلا ، حتى تتكون لديه حاجة الى القراءة ·

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٩ ·

وقبل أن نتخلص من هذا العرض لما بين « الأجناس الاعلامية » والبلاغة الجديدة من وحدة نرى لزاما علينا أن نطرح سؤالا أمام الدارسين والنقاد ، وهذا السؤال هو : اذا كانت الأجناس الاعلامية تصدر عن لغة واحدة أو أصل لغوى واحد تنطقه الحواس الانسانية ، فهل من الممكن الآن ترجمة أثر اعلامى يصطنع وسيلة خاصة به الى اثر فنى آخر ويوضوح اكثر نتساءل : هل من الممكن أن نترجم تحقيقا صحفيا يتوسل بالوسيلة الصحفية الى الجماهير ، الى برنامج اذاعى صيغ من طبيعة الوسيلة الاذعية ؟

البلاغة هى الوسيلة :

وما نريد أن ندخل فى الاختلافات الكثيرة التى ظهرت فى المدارس الفنية المختلفة بل يكفينا أن نؤكد على ملاحظة واحدة تستحق الاهتمام ، وهى تنبع من وحدة الأجناس – الاعلامية ، ذلك أن وسائل الاعلام الجديدة قد بعثت مرة أخرى الفلسفة البلاغية القديمة وبخاصة أن الاعلام انما يستهدف المخاطبين أو المتلقين بالدرجة الأولى ، أى أن الأثر الاعلامى يقوم على مقومات الصناعة ، وهى تصميم العمل طبقا لمثال سابق ، وثانيا تنفيذ هذا العمل ، على أساس من قواعد محكمة ، تعنى أولا ، وأخيرا بعلاقة الجزء بالجزء ، – وعلاقة الجزء بالكل ، وثالثا افتقار هذا العمل الى آلات وأجهزة لا يمكن أن يتحقق بدونها ٠

ان هناك جيلا جديدا يبرز ، يجمع تجارب الكتاب والجرامفون والسينما والراديو والتليفزيون فى صعيد واحد ، هذا الجيل يدرك أن – الكتابة ليست الا وسيلة لتحويل المسموع الى مرئى ، ثم اعادته بالاصطلاح أو الرمز الى مرئى مرة أخرى ، وأن القلم والقرطاس ليسا وسيلة ابداع ولكنهما التين لمجرد التدوين والابداع ، يتم بهما وبدونهما على السواء ، وكذلك بقية أجهزة التسجيل وأدواته (٦) ٠ وفطن هؤلاء الطامحون الى تحقيق البلاغة الجديدة باسلوب مغاير لاساليب الذين سبقوهم فهم يدركون أن الأثر الفنى كثيرا ما يتكامل فى النفس ، قبل المشروع فى ابرازه كلمة منطوقة ، أو حركة موقعة ، أو مادة مشكلة ٠ وعلى الرغم من ذلك فان الابداع يتم أيضا فى لحظات ابرازه الى العالم الخارجى ، أى أن الرسامين والمثالين والادباء من يفكرنا بأنامله أو فرشاته أو قلمه ٠ وما أكثر الادباء الذين تنتشر افكارهم ومشاعرهم على

---

(٦) دكتور عبد الحميد يونس : المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ ٠

اطراف اقلامهم والذين ينشئون الصور القلمية والقصص ، وهم يدقون باصابعهم على الالة الكاتبة ، وكذلك يصنع الكثيرون من الرسامين والمثالين والموسيقيين • وهذه الحقيقة هي التي دفعت المفتشين عن البلاغة الجديدة ، المكافئة لعصر العلم والتكنولوجيا الى محاولة جريئة هي ان يتوحد التاليف والاخراج والاداء •• واذا تعذر توحيد هذه المراحل في شخص واحد ، فمن اليسير توحيدها في اطار زماني مكاني واحد (١) •

وقد أطلق ماكلوهان عبارة « المعرفة التطبيقية » على الثورة الطويلة التي حاول بها الانسان أن يترجم الطبيعة الى فن • و « تطبيقي » بمعنى أنه مترجم أو منقول من نوع الشكل المادي الى نوع آخر ، ويذهب الى أن « مضمون » وسائل الاعلام لا يمكن النظر اليه مستقلا عن تكنولوجية الوسائل الاعلامية نفسها •• فالكيفية التي تعرض بها المؤسسات الاعلامية الموضوعات والجمهور الذي توجه له كلامها يؤثر على ما تقوله تلك الوسائل • ولكن طبيعة وسائل الاعلام التي يتصل بها الانسان تشكل المجتمعات اكثر مما يشكلها مضمون الاتصال • ويعرض ماكلوهان أربع مراحل تعكس في تصوره التطور الانساني وهي : المرحلة الشفوية ، ماقبل القلم ، اى المرحلة القبلية ، ثم مرحلة الكتابة الخطية ، ثم عصر الطباعة ، فعصر وسائل الاعلام الالكترونيه • وطبيعة وسائل الاعلام المستخدمة في كل مرحلة تساعد على تشكيل المجتمع أكثر مما يساعد مضمون تلك الوسائل على هذا التشكيل • وهذا الاسلوب في دراسة التطور الانساني ، ليس أسلوبا مبتكراً ، فقد رأينا تقسيم ويلز وتصوره لعامل التطور • على أن ماكلوهان يذهب الى أن التغيير الاساس في التطور الحضاري منذ تعلم الانسان كيف يتصل ، كان من المرحلة الشفوية الى السطرية ثم الى الشفوية مرة أخرى •

ويرفض ماكلوهان رأى نقاد الاعلام الذين يدعون أن الوسائل الجديدة ليست في حد ذاتها شرا أو خيرا ، ولكن الطريقة التي تستخدم بها هذه الوسائل هي التي تحدد ذلك • ويقترح كبديل أن نفكر في طبيعة وشكل الوسائل الاعلامية الجديدة ، فمضمون التليفزيون الضعيف ليس له علاقة بالتغييرات الحقيقية التي يسببها التليفزيون • كما أن الكتاب قد يتضمن مادة تافهة ، ولكن ذلك ليس له دخل في عملية القراءة • فالرسالة الاساسية في التليفزيون هي التليفزيون نفسه • العملية نفسها ، كما أن الرسالة الاساسية في الكتاب هي المطبوع • فالرأى الذي يقول أن وسائل الاعلام أدوات تستخدم في الخير

---

(١) نفس المرجع ص ٦٣ •

والشر ، لايتفق معه ماكلوهـــان • فلايهم فى تصوره ما اذا عرض التليفزيون عشرين ساعة يوميا افلامها لرعاة البقر ، أو برامج ثقافية راقية ، فالمضمون ليس مهمـــا لديه ، ولكن التـــأثير العميق ــ للتليفزيون هو الطريقة التى يعدل بمقتضـــاها الناس الاســاليب التى يستخدمون بهـــا حواسهم ويعبر عن ذلك بقوله المشهور « الوسيلة هى الرسالة The Medum is the Message ويريد بالاضافة الى مـــا تقدم من تعبيره أن يؤكد على أن لكل وسيلة جمهورا من النـــاس يفوق حبهم لهذه الوسيلة اهتمـــامهم بمضمونهـــا • فالتليفزيون « كوسيلة » يمثل محور اهتمام كبير ، كما أن بعض الناس يفضلون القراءة من اجل الاستمتاع بممارسة تجربة المطبوع ، كذلك يفضل البعض التليفزيون بسبب الشاشة التى تتحرك عليها الصور والصوت •

كما أن « البلاغة » فى « الوسيلة » تمثل تأثير الأشكال التى تظهر بها فى المجتمع فوجدنا مفكرا كبيرا مثـــل جورج دوهاميل (١) بعــد اختراع الراديو والسينما ، يناقش مشكلة الثقافة ، ويؤكد أن النظام الثقافى يقوم على الطبـــاعة منذ خمسة قرون •فالكتاب لديه أحد محركات الفردية الخالقة Individualisme « تلك الفردية التى لاتزال حتى فى عصر الاضطراب الذى نعيش فيه ــ روح الخير القوامة على جماعاتنا البشرية » • ويعترف بأنه فى الامكان أن نعود الى الكتاب بعد سماع الراديو أو بعد مشاهدة الفيلم ولكنه فى الحقيقة ضعيف الأمل فى هذا الاحتمال ، اذ أن فى طبيعة الراديو الجارفة ــ التى تشبه تدفق النهر ــ ما لا يساعد على التفكير ، أى على الثقافة الحقيقية ، فهو والســـينما يقدمان أشياء مسرفة الكثرة لا نشعر معها برغبـــــة فى أن نحقق أو نختبر أو نكمل ، بل ولا فى أن نفهم ، وانما نأخذ منهما ما نأخذ خطفا وكيفما اتفق • وأما ما يفوتنا فليفت وليس هذا منهج الثقافة » •

ويذهب ماكلوهان الى أن بناء « الوسيلة » ذاتهـــا مســـئول عن نواحى القصور فيها وعن مقدرتها فى توصيل المضمون • فهنـــــاك وسيلة أفضل من وسيلة أخرى فى اثارة تجربة معينة كما نجد بالنسبة لكرة القدم فى التليفزيون مثـلا لأنها أفضل من تقديمها عن طريق الراديو أو على أعمدة الجريدة • وعلى النقيض من ذلك ، نجد أن أغلب الماجريات البرلمانية أقل سأمة أو اثارة للملل فى الجريدة عنها فى التليفزيون ، ويبدو أن لكل وسيلة طبيعتها الخاصة التى تجعل تقديم بعض الموضوعات أفضل من البعض الآخر •

---

(١) دفاع عن الأدب ــ ترجمة الدكتور محمد مندور ص ٤٦ •

ويؤكد ماكلوهان فكرة أن « الوسيلة هي الرسالة » ترجع الى ان الوسيلة هي التي تشكل وتتحكم في مقياس نشاط الناس وعلاقاتهم ، ويذهب الى أن من مميزات الوســـائل أن مضمونها يخفي طبيعتها ، ولذلك لا ينظــر فقط في دراساته الى « المضمون » بل الى الوسيلة ذاتها » . والى القالب الثقافي الذي تعمل بداخله . « ان معظم الآراء التقليدية تبين الى أي حـد كنـــا لا نعي في الماضي الآثار الاجتماعية والنفسية للوسائل » .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فاننـــا نطرح في الصفحات التـــالية مجرد اختيارات بهدف دراسة هذه البلاغة الجديدة ؛ ونأمل ان يكون لهذه الاختيارات اثرها في دفع الدراسات البلاغية الى أمام في اطار من الأصالة والمعاصرة .. ونأمل أن نكون قد وفقنا الى ذلك .. فجل من لا يخطىء تحيزا أو قصورا في عالم البشر .

المؤلفـــان

الباب الأول

علوم البلاغة العربية :
لماذا وضعت ؟

- ١ -

تاريخ الفكر البياني :

كانت العرب أمة مشهورة بالبيان والبلاغة وفصاحة القول ، وكانت صناعتها خطبة تحبرها ، أو قصيدة تجودها ، أو مقالة تنمقها ، وكذلك كان شأنهم منذ العصر الجاهلي ، يرفعون مكانة الشاعر والخطيب ، وكان لكل قبيلة شاعر وخطيب ، أو شعراء وخطباء ، يذودون عن احساب القبيلة واعراضها ، وينطقون بمآثرها ومفاخرها ومكارمها ، واخبار ايامها ، وسؤدد تاريخها ، وشرف ارومتها ، وكريم عزتها . وظلوا كذلك الى أن جاء الاسلام ، ونزل القرآن كتابا سماويا منيرا ، يعجز الخلق ببلاغته ، ويدل بأسلوبه على منزلته في الفصاحة ومكانته ، ويهدى الناس الى ارفع درجات السلوك وأكرم آداب المثل العليا ، ويحضهم على الايمان بالله وتوحيده ، ويدعوهم الى أصول الفضائل والآداب والأخلاق .

ولما كان القرآن معجزا في فصاحته وأسلوبه وبلاغته ، فقد بهر الأدباء ، وأخرس الفصحاء ، وأسكت البلغاء ، وحاول العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا ثم جهدوا أن يأتوا بعشر سور مثل سوره ففشلوا فقالوا نأتي بسور ثلاث أو بسورتين أو بسورة في مثل بيانه ، فآبوا بالعجز والهزيمة والاخفاق .

وقد كان القرآن الكريم نموذجا أدبيا عاليا ، اقتدى به العرب في بلاغته وبعثهم على تهذيب الأسلوب ، وتجويد الأداء ، وجعلهم يظلون محبين للأدب ، مستهامين بالفصاحة ، مأخوذين ببلاغة القول ، وفصاحة الأداء ، ومن ثم فقد بقى العرب بعد الاسلام على حالهم الذين كانوا عليه من حبهم للأدب ، وتذوقهم لأسرار البيان ، واهتزازهم لجيد الكلام ، وأخذت منزلة الخطيب في عصر صدر الاسلام تقوى ، واحتلت الخطابة المكان الذي كان يحتله الشعر في العصر الجاهلي .



وكان العرب بفطرتهم وأذواقهم المرهفة ، منذ العصر الجاهلي يسمعون الشعر وألوان الأدب المختلفة ، ويميزون بين أسلوب وأسلوب ، وعبارة وعبارة ، ولفظة ولفظة ، وكان النابغة في العصر الجاهلي حكم الشعراء ، وكانت تضرب

له في سوق عكاظ قبة حمراء ، ويجتمع عليه الشعراء فينشدونه ويتحاكمون اليه

أتاه الأعشى يوما فأنشده من شعره ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال لحسان : لولا أن أبا بصير الأعشى أنشدني آنفا لقلت انك اشعر الجن والانس ، فقال حسان :

ـ والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ٠٠ فقبض النابغة على يده ، وقال :

ـ يا ابن أخي انت لا تحسن أن تقول :

فانت كالليل الذى هو مدركي

وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ويروى أنه سمع من حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى

واسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق

فاكرم بنا خالا ، واكرم بنا ابنما

فقال النابغة له : قللت جفانك ولو قلت الجفان لكانت اكثر ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت يلمعن في الضحى ولو قلت يبرقن في الدجى لكان أبلغ لأن الضيف بالليل اكثر طروقا ٠

وهذه الأخبار الأدبية على الرغم مما يذهب اليه البعض من أنها مختلقة ، تشير الى ذوق العرب المرهف ، واحساسهم الدقيق بالأدب وبلاغته ٠

وقد ظلوا كذلك بعد الاسلام ، يسمعون الكلام ويميزون بين جيده ورديئه وينقدون الشعراء والخطباء ، ويحكموه على الشعر احكاما ادبية دقيقة ، فقالوا مثلا عن جرير : انه يغرف من بحر ، وعن الفرزدق أنه ينحت من صخر ، وعن الأخطل أنه أشعرهم في وصف الخمر ، ومدح الملوك ، وعن ابن ابي ربيعة أن لشعره موقعا من القلب وعلوقا بالنفس ٠

وانشدت ليلى الاخيلية يوما الحجاج :

اذا ورد الحجاج ارضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام اذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ، ولكن قولى (همام) ٠٠ وانشد عبد الملك ابن مروان قول نصيب :

اهيم بدعد ما حييت فان امت
فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فقال بعض البلغاء : اساء القول ، أيحزن لمن يهيم بها بعده ؟ فقال عبد الملك : لو كنت قائلا فماذا تقول ؟ قال :

اهيم بدعد ما حييت فان امت
اوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبد الملك : انت أسوأ قولا ٠٠ ثم قال : الوجه أن يقال :

اهيم بدعد ما حييت فان امت
فلا صلحت دعد لذى خلة(١)بعدى

وكان كثير يعيب عمر بن ابى ربيعة فى قوله :

قالت لترب لها تحدثها
لتفسدن الطواف فى عمر

قومى تصدى له ليبصرنا
ثم اغمزيه يا أخت فى خفر

قالت لها : غمزته فابى
ثم اسبطرت تشتد فى اثرى

ويقول : أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك ، واللّٰه لو وصفت بهذا هرة منزلك كنت قد أسأت صفتها ، أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف المرأة بالخفر

---

(١) الخلة : الصداقة ٠

وانها مطلوبة ممنعة ، كما قال الاحوص :

لقد منعت معروفها ام جعفـــــر
وانى الى معروفها لفقيــــــر

وقد انكروا عنـــد اعتراف زيارتى
وقد وغرت فيهـا على صــــدور

أدور ولولا أن ارى ام جعفــــــر
بابيــــاتكم ما درت حيـث أدور

* * *

ومن ذلك كله نقول : ان العوامل الأولى فى نشأة البلاغة العربية هى :

١ ـ ان العرب أمة مفطورة علىالبلاغة ، وقد رفع القرآنالكريم منزلة البلاغة فوق منزلتها ، ومن ثم كان العرب فى بحثهم عن خصائص البلاغة العربية يبحثون عن أعز شيء لديهم ، وأظهر أمر لهم فيه الغلبة والتفوق ٠

٢ ـ أن العرب نشأوا كذلك على تذوق الأسلوبونقده ، والفطنة بجيده ورديئه فملكة النقد عندهم موفورة ، وقد نشأ عن ذلك ظهور اراء نقدية كانت هى الأساس الأول للنقد الأدبى عند العرب ، وكان هذا النقد هو أساس علم البلاغة العربية ٠

٣ ـ وليس من شك فى أن فساد الأذواق ، وانحراف الملكات ، وتضاؤل الطبع فى نفوس العرب ، بعـد اتساع الفتوح الاسـلامية ، وامتزاج لعـرب بالشعوب المغلوبة ، وظهور اثر هـذا الامتزاج فى الألسنة والطبـاع ٠ ليس من شـك فى أن ذلك كان من البواعث على تدوين أصول البـلاغة العربية لتكون ميزانا سليما توزن به بلاغة الكلام ، ولتعصم هذه الأصول الأدباء والمتأدبين من الخطأ فى الأسلوب والبيان ٠

٤ ـ ويضاف الى ذلك عامل اخر بعيد الأثر فى تدوين البلاغة هو الرغبة فى فهم أسرار اعجـــاز القرآن الكريم ، واقامة الأدلة العلمية على هـــذا الاعجاز ٠

- ٢ -

اهمية دراسة البــــلاغة ٠

البلاغة هى أن يجعل الأديب لكل مقام مقالا ، ولكل حال مقتضاها ، فيوجز حيث يحسن الايجاز ، ويطنب حيث يجمل الاطناب ، ويؤكد فى موضع التوكيد ، ويقدم أو يؤخر اذا استدعى ذلك المقام ، وطلبـــه الحـــال ، ورأى ذلك أنسب لقوله ، واوفى بغرضه ويخاطب الذكى بغير ما يخاطب به الغبى ، ويجعل لكل اعتبار ما يناسبه من القول ، فى عبارة فصيحة ، ومعنى مختار ٠

ولدراسة علوم البلاغة اهمية كبيرة :

١ ـ فهى تقوم الملكات ، وترشد الذوق ، وتهدى الموهبة الأدبيـــة فى نفس الأديب الى الكمال ٠

٢ ـ وهى تعلل ما نشعر به من اريحية وهزة واعجاب ، عنـدما نقرأ اسلوبا بليغا ، او كلاما فصيحا ٠

٣ ـ وهى تبين لنا سر اعجاز القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة ٠

٤ ـ وكذلك هى تساعد الأديب أو رجل الاعلام على ان ينتج ادبا رائعا : من شعر بليغ ، أو رسائل جميلة ، أو قصص أنيقة ، او مقـالات خصـبة ، الى غير ذلك من شتى الوان الادب وفنونه ٠

٥ ـ وهى كذلك تحول بين الانسان وبين الخطأ فى الأسلوب أو الخيـال أو المعنى أو الغرض ، أو الفكرة ٠

٦ ـ وبدراسة علوم البلاغة يستطيع الأديب ان يكون ناقدا متذوقا ، وكاتبـا موهوبا ٠ الى ما ســوى ذلك من المـزايا التى تنشـــأ عن دراسة علوم البلاغة ٠

- ٣ -

التآليف في البـــلاغة :

لم يؤلف العرب فى البلاغة فى العصر الاسلامى ، ولا فى أوائل عصر بنى العباس ، وانما بدأوا يؤلفون فى البلاغة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس الهجرى ، وليس معنى ذلك أنهم بدأوا فى هذا التاريخ ولأول مرة يؤلفون في البلاغة ، كلا ، فقد أخـذوا منذ عهـد الدولة العباسية يخطون خطوة فخطوة فى سبيل ابتكار بحوث البلاغة والتآليف فيها ٠

وقد أخذ النقـاد والأدباء والكتاب يحاولون فهم أسرار بلاغة الكـلام ، ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم في جمال الأسلوب ، واشترك في النهوض بهذا العبء منذ أول العصر العباسى كثيرون ، وفى مقدمتهم ائمة الشعر والخطابة وفحول الكتاب ، والرواة ، وعلماء الأدب من بصريين وكوفيين ، ورجال النقد٠

* * *

أوائل العلماء الذين ألفوا في البلاغة :

ومن أوائل العلماء الذين بحثوا وكتبوا أشياء تتعلق بالبلاغة العربية :

١ ـ الامام أبو عبيدة معمر بن المثنى البصرى (١١٢ ـ ٢٠٦ هـ) وكان من ائمة الأدباء والنقاد ، وكتابه « مجاز القرآن » مشهور ، وقـد ذكر فيـه الكثير من آيات القرآن الكريم ، وحلل بلاغتها ، ودافع عنها دفاع العالم الحجة المجود ٠

٢ ـ أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ (١٦٠ ـ ٢٥٦ هـ) ، وهو شيخ الأدب والعربية والنقد في عصره ، وقد ألف كتـابا مشهورا سماه « البيـــان والتبيين » ، وجمع فيه الكثير من : بلاغات العرب ، وآرائهم فى النظم والشعر ، وتحديدهم لمعنى البلاغة والفصـاحة ، وفيه صحيفة بشر بن المعتمر ، وهى أول صحيفة فى البلاغة وعناصرها ٠ وكذلك ألف الجاحظ كتابا فى اعجاز القرآن الكريم ، وألف كثيرون غيره فى الاعجاز ٠

٣ ــ أبو العباس عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي الأديب الشاعر المشهور (٢٤٧ ــ ٢٩٦ هـ) ٠

وقد الف عام ٢٧٤ هـ كتابا سماه البديع ، وذكر فيه ثمانية عشر لونا من الوان البديع ، منها الاستعارة والكناية والتشبيه ، ويقول ابن المعتز في صدر كتابه : « وما جمع قبلي فنون البديع أحد » ٠

جهود النقاد في وضع علوم البلاغة :

وقد نشأ منذ القرن الثالث طائفة كبيرة من النقاد ، منهم ابن سلام الجمحي المتوفي عام ٢٣١ هـ صاحب كتاب « طبقات الشعراء » وقدامة بن جعفر المتوفي عام ٣٣٧ هـ صاحب كتاب نقد النثر ، وكتاب نقد الشعر ، ثم ابو هلال العسكري المتوفي عام ٣٩٥ هـ صاحب كتاب الصناعتين ، وابو بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ صاحب كتاب « اعجاز القرآن » وابن سنان المتوفي عام ٤٦٦ هـ صاحب كتاب « سر الفصاحة » وابن رشيق المتوفي عام ٤٦٠ هـ صاحب كتاب العمدة ، وسواهم ٠

وهؤلاء النقاد اثاروا في محاضراتهم وبحوثهم وكتبهم كثيرا من بحوث البلاغة بل ان كتاب الصناعتين وكتاب سر الفصاحة وكتاب العمدة اقرب ما يكون الى كتب البلاغة منها الى كتب النقد ٠

وفي القرن الرابع اتجه علماء الأدب في أوله الى الكتابة في الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم افادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم للب البحث في مظاهر البيان ومشكلات البلاغة فاتجه تاليفهم في آخر هذا القرن الى بحوث البلاغة نفسها ٠



اول مؤلف في البلاغة :

واول مؤلف في البلاغة في رأى العديدين هو الامام عبد القاهر الجرجاني المتوفي عام ٤٧١ هـ ، وصاحب كتاب : « أسرار البلاغة » ، وكتاب « دلائل الاعجاز » ٠

اما كتاب أسرار البلاغة ففيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض الوان البديع ٠

وأما كتاب دلائل الاعجاز ففيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني ٠ كما انه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات وهذه البحوث كلها هي عنده علم البيان ، لا فرق عنده بين ما هو راجع الى الكلام من حيث مطابقته لمقتضى الحال ، وبين ما يرجع اليه من حيث ابراز المعنى المراد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ٠ كما ان عبد القاهر لم يكن يعرف هذا الاصطلاح « علم المعاني » ولم يشر اليه من قريب ٠

السكاكي وكتابه المفتاح :

وبعد عصر عبد القاهر بكثير ظهر الامام أبو يعقوب السكاكي المتوفى عام ٦٢٦ هـ الذي الف كتابه المفتاح وجعله اقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها الى ثلاثة اقسام : المعاني ـ البيان ـ البديع ـ وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل ٠

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي الى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر ٠

القزويني ومدرسته في البلاغة :

وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ فالف في البلاغة كتابيه : تلخيص المفتاح ، والايضاح ٠ وقد الف الايضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح ، وجمع فيه كثيرا من البحوث البلاغية العميقة المفيدة ٠

وقد طارت شهرة هذين الكتابين ، وكثرت عليهما الشروح كثرة عجيبة ٠

السعد والسيد :

وبعد السكاكي والقزويني ظهر شيخا البلاغة : السعد (٧١٢ ـ ٧٩١ هـ)٠ والسيد المتوفى عام ٨١٦ هـ ، فكانا اظهر شراح السكاكي والخطيب القزويني ، وللسعد كتابان على متن التلخيص الذي الفه الخطيب : فالكتاب الأول هو المطول ، والكتاب الثاني هو مختصر المعاني وهو كالمختصر للمطول ، أما السيد فله حاشية على المفتاح للسكاكي وحاشية على المطول كذلك ٠

وبعد السعد والسيد توقف الابتكار في مسائل البلاغة ، وظهرت تاليف عديدة ليس فيها جديد ، واغلبها شروح وحواش على متن التلخيص ٠

واضع علوم البــــلاغة :

فمن الواضع لعلوم البلاغة ، ومؤسس علم البيان حقا ؟

أهو الجاحظ الذى هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربى حقا ، كما يقول الدكتور طه حسين (١) ؟

أم أن الواضع لها عبد القاهر كمــا يذهب اليه جمهور العلمــاء ، ومنهم صاحب الطراز ؟

أم أن الواضع لها السكاكى كما يذهب اليه ابن خلدون وبعض العلماء ؟

اختلفت الآراء فى ذلك ، ولا ضير من هذا الاختلاف فى شىء ، وهنــاك من يرى أن ابن المعتز يجب أن يعد أول مؤلف فى البلاغة بتأليفه كتابه البــديع الذى هو أول عرض لموضوعات البلاغة أو لعلم البيان والبديع خاصة ، بشكل سهل جميل مع الشواهد والأمثلة ٠

---

(١) مقدمة نقد النثر ٠

تراجم لشيوخ البــلاغة

عبد القاهر الجرجاني :

المتوفي عام ٤٧١ هـ

هو شيخ البــلاغة العربية وامامها ، الشيخ ابو بكر عبــد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، صاحب « اسرار البلاغة » ، و « دلائل الاعجاز » ·

والشيخ عبد القاهر اديب متذوق ، وناقد فحل ، يتعمق في فهم النصوص ويجيد تحليلها ودراستها والموازنة بينها وبين ما يشبهها من الآثار الأدبية ، وقد تكلم في كتابيه عن كثيــر من مســائل البلاغة ، وعنى كثيــرا بالتشــبيه والاستعارة والمجاز والذكر والحذف ، وبكثير من بحوث البلاغة ·

ويغلب على كتابته في البلاغة والنقد الروح الأدبي الموهوب العميق ، النافذ الى الأسرار والخصائص والأسباب ·

وهو بهذين الكتابين أول واضع لعلم البلاغة العربية ، وشارح لمسائلها ، ومبتكر لمسائلها ، ومن ثم فهو جدير منا بكل تقدير واجلال ·

ويكثر في الكتــابين من عرض الشواهد والأمثلة وتحليلهـــا والموازنة بينها ، وبين ما يشبهها ، في دقة وذوق وفطنة بأسرار البيان ·

السكاكي :

المتوفي عام ٦٢٦ هـ

هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفي عام ٦٢٦ هـ ، وقد درس المنطق تالفلسفة واللغة دراسة واسعة ، وألف كتابه المفتاح في شتى علوم العربية ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وتحدث في الكتاب ـ مفتاح العلوم ـ عن خلاصات لعلوم النحـــو والصرف والبـــلاغة والمنطق والعروض والقافية ·

والسكاكي أول من قسم علم البلاغة الى ثلاثة علوم : علم المعاني ـ علم البيان ـ علم البديع ·

وهو اكثر ميلاً الى المنطق ، واظهر بعداً عن ميدان الأدب والنقد ، وقد استفاد من مجهود عبد القاهر وسواه من علماء البلاغة السابقين فائدة جلي ·

وقد كثرت بعد السكاكي المناقشات اللفظية والبحوث المنطقية في البلاغة ، ولاتزال موجودة حتى اليوم ·

وعلى مفتاح العلوم شروح وحواش ليس لها نظير على أي كتاب آخر ·

الخطيب القزويني :

٦٦٦ ـ ٧٣٩ هـ

هو قاضي القضاة الشيخ جلال الدين محمد بن عمر القزويني الشافعي ·

نشأ من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان ولا شك لها أثرها في حياته وتفكيره وروحه ·

ولد عام ٦٦٦ هـ ، وتعلم الفقه ، وتولى القضاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة في مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، واكتسب مالا طائلا ، ثم جاء الى دمشق وتوفى فيها · واشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والايضاح في المعاني والبيان (١) وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ·

وتدل مؤلفات الخطيب في البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات في البلاغة وفي مقدمتها : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكي ·

ألف الخطيب مختصرا صغيرا للمفتاح في البلاغة أو للقسم الثالث بعبارة أوضح وسماه « تلخيص المفتاح » · لخص فيه ذلك السفر العظيم ، وقدم فيه وأخر ، وحذف ، واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون·

---

(١) ٤٤ ج ٣ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، شذرات الذهب ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ·

على ان متن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار او الدلائل او سر الفصاحة وحدها ، انما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح اولا ، وقبل كل شيء ... وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه الى المفتاح نفسه الذى اعتمد فيه السكاكى على عبد القاهر الى حد بعيد .

ثم الف الخطيب كتابه الايضاح في البلاغة على ترتيب التلخيص ، وبسط القول فيه ، ليكون كالشرح له ، فاوضح مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات في بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير اليه الخطيب نفسه في مقدمة الايضاح .

وكتاب الايضاح فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمي والرصانة الأدبية .

وعلى « تلخيص المفتاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشي والتقارير، التي تروعك كثرتها ، مما يدل على مدى شهرة الكتاب العلمية عند الباحثين . ولايزال منهج الخطيب في البلاغة وفي متن التلخيص بالذات هو المنهج العلمي والدراسي في علوم البلاغة الى عصرنا الراهن .

وكتاب الايضاح عمل جليل في البلاغة ، سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم في استيعابه واستقصائه وتحليله ، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم في أسلوبه الأدبي وروحه العلمية وكثرة تبويباته الأدبية .

وهو اهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر . ويمتاز الايضاح للخطيب القزويني بعدة ميزات ظاهرة :

(أ) فهو اوفى كتاب في بحوث البلاغة .

(ب) وهو أوضح الكتب المؤلفة في البلاغة نظاما وأسلوبا .

(جـ) وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط لأسرار البلاغة العربية .

(د) وهو كتاب تطبيقي جميل في البلاغة .

(هـ) وينقد القزويني فيه كثيرا من اراء السكاكى .

(و) ويعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر والسكاكى كثيرا .

(ز) والخطيب يجمع في كتابه خلاصات لبحوث علماء البلاغة في شتى العصور حتى عصره .

(ح) والكتاب بعد ذلك غزير المادة كبير الفائدة فى الأدب والنقد والبلاغة والبيان ٠

سعد الدين التفتازاني

٧١٢ ــ ٧٩١ هـ

هو العلامة مسعود بن عمر ، ولد واخذ العلم عن اكابر العلماء فى عصره وتنقل بين البلاد ، ومن البلاد التى رحل اليها هراة ، وقد الف فيها كتابه المطول سنة ٧٤٨ ، ثم الف المختصر سنة ٧٥٦ هـ ٠

وعنى السعد بآراء عبد القاهر والسكاكى والخطيب عناية فائقة ، ويغلب على كتابته فى البلاغة صبغة المنطق والتقسيمات العقلية الجافة ، وله حاشية على المفتاح ومؤلفات اخرى تشهد له بالفضل والتفوق ٠

السيد الجرجاني

٧٤٠ ــ ٨١٦ هـ

ولد فى قرية « سراباذ » بين همدان وبغداد ، وتتلمذ على السعد ، وقدم القاهرة ودرس بها ، ثم خرج الى بلاد الروم ، ثم عين أستاذا فى شيراز ٠

والف فى البلاغة ٠

١ ــ شرحا على المفتاح ٠

٢ ــ شرحا اخر على القسم الثالث من المفتاح ٠

٣ ــ حاشية على المطول للسعد ٠٠٠ وقد ناظر أستاذه السعد مناظرة مشهورة ، وكان موضوعها « اجتماع الاستعارة التبعية والتمثلية فى كلام صاحب الكشاف ، فى قوله تعالى « **اولئك على هدى من ربهم** » ٠

العضد

٧٠١ ــ ٧٥٦ هـ

ولد عضد الدين الايجى فى قرية ايج من نواحى شيراز ، واخذ عن

مشايخ عصره ، وأخذ عنه السعد وسواه ، وعين مدرسا فى شيراز • ثم حبسه حاكم كرمان ومات فى حبسه •

ومـــن أهم مؤلفاته فى البـــلاغة الفـــوائد الغيائية ، وهو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح ، وهو أقصر من تلخيص المفتـــاح للخطيب القزوينى •• وله كتب أخرى مخطوطة •

أهم كتب البـــلاغة فى مختلف العصـــور

مجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٨ هـ

البديع لابن المعتزم م ٢٩٦ هـ

الصناعتين لأبى هلال العسكرى م ٣٩٥ هـ

أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر م ٤٧١ هـ

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى م ٤٦٦ هـ

العمدة لابن رشيق م ٤٦٠ هـ

نهاية الايجاز للرازى م ٦٠٦ هـ

المفتاح للسكاكى م ٦٢٦ هـ (١)

قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ

المثل السائر لابن لاثير ٦٣٧ هـ

التبيان لابن الزملكانى م ٦٥١ هـ

المعيار للزنجانى م ٦٥٤ هـ

---

(١) شرحـــه : الشيرازى م ٧١٠ هـ ، والخلخالى م ٧٤٥ هـ ، والسـعد م ٧٩٢ هـ والسيد م ٨١٦ هـ ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ هـ •

ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ ، وللدسوقى م ١٢٣٠ هـ شروح عليه •

ولزكريا الأنصارى م ٩٢٦ مختصر تلخيص المفتاح ، وللعباسى م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص اسمه معاهد التنصيص •

المصباح لبدر الدين ابن ابن مالك م ٦٨٦ هـ

الاقصى القريب للتنوخي م ٦٩٨ هـ

بديع القرآن لابن ابى الاصبع م ٦٥٤ هـ

الايضاح للخطيب القزويني م ٧٣٩ هـ

تلخيص المفتاح له ايضا

الفوائد الغياثية للعضد م ٧٥٦ هـ ، وشرحها الكرمانى م ٧٨٦ هـ

التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ

الطراز ليحيى بن حمزة العلوي م ٧٤٩ هـ وقد طبع فى ثلاثة اجزاء

عروس الافراح للسبكى م ٧٧٣ هـ

المطول للسعد م ٧٩١ هـ

السمرقندية للسمرقندي وهي رسالة فى الاستعارات ، وتوفي السمرقندي عام ٨٨٠ هـ

عقود الجمان للسيوطي م ٩١١ هـ

الجوهر المكنون للاخضرى م ٩٠٥ هـ ، وشرحه الشيخ الدمنهوري ١١٩٢ هـ

تحفة الاخوان فى علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ

الرسالة البيانية للصبان م ١٢٠٦ هـ

التجريد للبناني م ١٢١١ هـ

حسن الصنيع للشيخ البسيوني م ١٢١٣ هـ

زهر الربيع للحملاوى م ١٣٥٢ هـ

البلاغة الواضحة للجارم م ١٩٤٩ هـ

كتب اخرى تدور حول البلاغة

من اهم هذه الكتب :

نقد الشعر ، لقدامة م ٣٣٧ هـ

سر الفصاحة لابن سنان ٤٦٦ هـ

الوساطة للجرجانى ٣٩٢ هـ

الوساطة للجرجانى ٣٩٢ هـ

الموازنة للآمدى م ٣٧١ هـ

العمدة لابن رشيق م ٤٦٠ هـ

تفسير الكشاف للزمخشرى ، وله كتاب اساس البلاغة ٠

المجازات النبوية ، ومجاز القرآن ـ للشريف الرضى المتوفى ٤٠٦ هـ

الباب الثاني

الفصاحة ـ البلاغة

نحو بلاغة جديدة

الفصـــاحة :

الفصاحة فى اللغة تبىء عن الظهور والابانة ، يقال : فصح الاعجمى فى كلامه وافصح : اذا انطلق لسانه ، وخلصت لغته من اللكنة ، وجـادت ملكتـه فلم يلحن ٠

وهى عنـد البـلاغيين يوصف بها اللفظ المفـــرد ، والكلام ، والمتكلم ، فالفصاحة عندهم هى كون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب ، كثير الاستعمال على السنة العرب الموثوق بعربيتهم ٠

١ ـ فصاحة المفرد

هى خلوصه من :

١ ـ تنـافر الحروف ٠

٢ ـ الغـرابة ٠

٣ ـ مخـالفة القياس ٠

التنـــافر

هو وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها ٠

والتنافر قسمان :

(١) فمنه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللســان وعسر النطق بها كما روى ان اعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع وهو اسم شجر من شجر الصحراء ٠

(ب) ومنه ما هو دون ذلك ، كلفظ مستشزر في بيت امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العـــــلا
تضل العقاص في مثنى ومرسل (١)

والحكم في ذلك هو الذوق ·

الغـرابة

وهى ان تكون الكلمة وحشية (٢) لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفته :

(أ) الى أن يفتش عنها في كتب اللغة المبسوطة ، كما روى عن عيسى ابن عمر النحوى انه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : « مالكم تكاكأتم على تكاكؤكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى » أى مالكم اجتمعتم تنحوا ·

(ب) أو الى أن يخرج لها وجه بعيد ، كما في قول العجاج :

ومقـــلة وحـاجبا مزججـا
وفاحمـا ومرســـنا مسرجا (٣)

---

(١) الغدائر : الذوائب جمع غديرة ، والضمير فيها عائد الى الفرع في البيت قبـله · مستشزرات أى مرتفعـات ان كان بكسر الزاى على لفظ اسم الفاعل ، أو مرفوعات ان كان بالفتـح على لفظ اسم المفعول ، استشزره أى رفعه متعديا ، واستشزر اى ارتفع لازما · تضل : تغيب وتختفى · العقاص : جمع عقيصة وهى الخصلة المجموعة من الشعر · المثنى المفتول · المرسل : خلاف المثنى ·

والمعنى : ان ذوائبه مشدودة على الرأس وان شعره مقسم الى عقاص ومثنى ومرسل ، والأول يغيب في الاخيرين ، والمراد وصف الشعر بالكثافة والكثرة والطول ·

والشاهد هنا قوله مستشزرات فهو لفظ متنافر ثقيل على اللسان ، ولكنه اقل ثقلا من « الهعخع » ·

(٢) أى ليست مأنوسة الاسـتعمال عند العـرب الخلص ، من سـكان البادية ·

(٣) المقلة : العين · مزججا : مدققا مطولا · فاحما : أى شعرا أسـود كالفحم المرسن : الانف ·

والشاهد في البيت في قوله مسرجا فانه غير ظاهر المعنى ، لأن العلماء قد اختلفوا في معناه · وليس هذا اللفظ مما يسهل البحث عن معناه في المعاجم اللغوية ·

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » حتى اختلف في تخريجه : فقيل هو من قولهم للسيوف : سريجية . أى منسوبة الى صانع يقال له « سريج يريد انه في الاستواء والدقة كالسيف السريجى ، وقيل : من السراج ، يريد انه فى البريق كالسراج · وهذا قريب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرج الله وجهــه وحسنه ·

مخالفة القيــاس :

هى ان تكون الكلمة على خلاف مفردات الألفــاظ الموضوعة أى عــلى خلاف ما ثبت عن الواضع ، أما الموافقة للقياس فهى ان تكون الكلمة على وفق ما ثبت عن الواضع سواء وافقت القانون التصريفى أم خالفته ولكن ثبتت عن الواضع كذلك ، والمخالفة ان تكون الكلمة على خلاف ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القانون الصرفى ايضا أم لا ، فنحو آل وماء وأبى يأبى وعور يعــور فصيح · لانه ثبت عن الواضع كذلك وان خالف قواعد الصرف ·

ومثال مخالفة القياس قول الشاعر :

الحمـــــد لله العــلى الاجلل

انت مليـك النــاس ربا فاقبــل

فان القياس الاجل بالادغام ، ومثله قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى

انى اجود لاقــوام وان ضننوا

علامة فصاحة الكلمة :

هذا وفصاحة الكلمة علامتها أحد أمرين :

١ ــ ان تكون هذه الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب الموثوق بعربيتهم اذا لم يكن لها مرادف ·

٢ ــ أوان تكون هــذه الكلمة أكثر اســتعمالا عندهم من الكلمات الاخــرى المرادفة لها المشتركة معها فى المعنى اذا كان للكلمة مرادف ·

فعلامة فصاحة الكلمة التي ليس لها مرادف كثرة استعمالها ، والتي لها مرادف أن تكون أكثر استعمالا من مرادفها ·

٢ ـ فصاحة الكلام

فصاحة الكلام : هي خلوصه من : ضعف التاليف ، وتنافر الكلمـات ، والتعقيد ·· مع فصاحة كل كلمة منه ·

ضعف التاليف :

هو أن يكون تاليف الكلام على خـلاف القانون النحـوى المشهور بين الجمهور : كالاضمار قبل الذكر لفظا ومعنى وحكما · مثل زار صديقه محمداً ·

فان رجوع الضمير الى المفعول المتاخر لفظا ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متاخر لفظا ورتبة ، فلو تقدم المرجع لفظا أو معنى أو حكما جاز ، وصح الأسلوب ، ولم يكن هناك ضعف تاليف ، فتقدم المرجع لفظا · مثل أكرم محمد صديقه ·

وتقدمه في المعنى مثل : توارت بالحجاب ، أي الشمس ·

وتقدمه في الحكم مثل : هو الله أحد ، ربه رجلا ·

ومن شواهد ضعف التاليف قول الشاعر :

فلو ان مجدا خلد الدهر واحـــدا
من الناس ابقى مجده الدهر مطعما

تنافر الكلمـــات :

هو ان تكون الكلمات ثقيلة على اللسان ، وان كان كل منها فصيحة وهو قسمان :

(١) قمنه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة ، كما في البيت الذي انشده الجاحظ :

وقبـــر حرب بمكان قفــــــــر
وليس قرب قبر حرب قبـــــــر

(ب) ومنه ما هو دون ذلك كما في قول ابي تمام :

كريم متى امدحه امدحه والورى معى
واذا ما لمتـــه لمتـــه وحـــدى

فان في تكرار قوله « امدحه امدحه » ثقلا لما بين الحـــاء والهـــاء من التنافر ·

التعقيـــــد :

أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به ، وله سببان :

أحدهما : ما يرجع الى اللفظ وهـــو ان يختل نظم الكـــلام ، ولا يدرى السامع كيف يتوصل منـــه الى معنـــاه ، ويسمى تعقيدا لفظيـــا ، وذلك كقول الفرزدق :

وما مثله في النـــاس الا مملكا
ابو امه حى ابوه يقـــــــاربه

كان حقه أن يقول : وما مثله في الناس حى يقاربه الا مملك ابو امه ابوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مثله – يعنى ابراهيم الممدوح – في الناس حى يقاربه ، أى احـــد يشبهه في الفضائل ، الا مملكا ، يعنى هشاما ، ابو ام هشام ابو الممدوح ، فالضمير في امه للملك ، وفي أبوه للممدوح ، ففصل بين ابو امه وهو مبتدأ وهو جده بحى ، وهو أجنبى ، وكذلك فصل بين حى ويقاربه ، وهو نعت حى بأبوه ، وهو أجنبى ، وقدم المستثنى عـــلى المستثنى منه ، فهو كمـــا تراه في غاية التعقيد ، فالكلام الخالى من التعقيد اللفظى ما سلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضمار أو حذف أو غير ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة ، لفظية أو معنوية ·

والثانى : ما يرجع الى المعنى ، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثانى الذى هو لازمه ، والمـــراد به ظاهرا ، كقول العبـــاس ابن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنـــكم لتقربوا
وتسكب عيناى الدموع لتجمـــدا

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لأن من شأن البكاء أن يكون كناية منه ، كقولهم : أبكاني وأضحكني ، أى ساءني وسرني ، وكما قال الحماسى :

أبكاني الدهر ويا ربما
أضحكني الدهر بما يرضى

ثم طرد ذلك في نقيضه ، فأراد أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقى من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر ..

وأخطأ لأن الجمود خلو العين من البكاء فى حال أراد البكاء منها ، فلا يكون كناية عن المسرة ، وانما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

ألا ان عينا لم تجد يوم (واسط)
عليك بجارى دمعها لجمود

لو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل ، فيقال لازالت عينك جامدة ، كما يقال لا أبكى الله عينك . وذلك مما لا شك فى بطلانه .

فالكلام الخالى عن التعقيد المعنوى ما كان الانتقال من معناه الأول الى معناه الثانى ـ الذى هو المراد به ـ ظاهرا ، حتى يخيل الى السامع أنه فهمه من سياق اللفظ .

٣ ـ فصاحة المتكلم

هى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح .

معنى البلاغة

اذا عرض لك موضوع فعرفت ما يقتضيه المقام من المقال ، وقلت فيه من الكلام ما يحسن أن يقال فى مثله ، واخترت للمعانى من الألفاظ والجمل والأساليب ما يتناسب وعقول القارئين والسامعين وشعورهم وذوقهم ، فتلك هى البلاغة .

فالبلاغة هى أن تجعل لكل مقام مقال ، فتوجز حيث يحسن الايجاز ، وتطنب حيث يجمل الاطناب ، وتوكد فى موضع التوكيد ، وتقدم أو تؤخر اذا رايت ذلك أنسب لقولك ، واوفى بغرضك ، وتخاطب الذكى بغير ما تخاطب بة الغبى ، وتجعل لكل حـال ما يناسبها من القول ، فى عبـارة فصيحة ومعنى مختار :

- ٢ -

ويجب مراعاة ثلاث مطابقات حتى يكون الأسلوب تاما وافيا بالغرض

١ ـ مطابقة الأسلوب للموضوع الذى يتكلم فيه ، فالموضوعات تختلف ضعة ورقيا ، والأفكار تختلف سذاجة وتعقيدا ، وسهولة ، وصعوبة ، فيجب ان يكون الأسلوب مسايرا لهـــذه الموضوعات والمعانى ، فيكون ســـهلا فى الموضوعات والمعـانى السهلة ، جزلا فيما يناسب الجزالة من الموضوعات والمعانى ، كما ان بعض الموضوعات يناسب الاطناب ، وبعضها يناسب الايجاز ، وبعضها يحتاج الى اسلوب خطابى ، وبعضها الى اسلوب منطقى ، وهكذا ٠

والوسيلة الى ذلك تربيـة الذوق الأدبى عنـد الكاتب ، حتى يدرك أوفق الأساليب للموضوع الذى يتكلم فيه ٠ وهذا الذوق جزء منه غريزى لا دخـل للانسان فيه ، وجزء مكتسب يكتسبه الكاتب بمخـالطته للأدباء المجيـــدين ، وبالمطالعة فى الكتب الأدبية الراقية ، وبالمران على الكتابة الجيدة ٠ فهو بهذا كله يستطيع أن يدرك الألفاظ والأساليب التى تناسب الموضوعات ، ويعلم أيهـا يحتاج الى قوة ، وأيها لا يحتـاج ، وأى الكلام يناسب المقـام وأيه لا يناسب ٠ وهذا الذوق الراقى هو غاية ما يصبو اليه الأديب ٠

يروى انه لما فرغ الخليفة المعتصم من بنـاء قصره ، جلس فيه وجمـع الناس من اهله واصحابه ، وجلس على سريره المرصع بالجواهر ، وكلما دخل رجل اجلس فى المكان اللائق به ، فما رأى الناس أحسن من هذا اليوم ، ثم اذن للشعراء أن يقولوا ، فقال اسحاق بن ابراهيم ، فكان أول بيت فى قصيدته تشبيبا بالديار القـديمة ، والآثار الدارسة ، على عادة شـعراء العرب فى الجاهلية فقال :

يا دار غيرك البلى فمحـــاك

ياليت شعرى ما الـــذى ابلاك

فتطير الخليفة وتطير الناس من قوله ، وانقبضت صدورهم ، وعمهم الأسف · وسبب هذا كله قلة ذوق الشاعر ، وعدم التوفيق فى الكلام والأسلوب الذى يناسب الموضوع ·

٢ ــ مطابقة الأسلوب لعقلية القارئين والسامعين ، فيجب ألا يكون الأسلوب عاليا جدا يصعب فهمه ، بل يجب أن يكون فى متناول عقولهم ، يستطيعون أن يدركوه فى سهولة ويسر ·

وخير وسيلة لرعاة هذه المطابقة أن يكون الخطيب أو الكاتب على علم تام بعقلية الناس وطباعهم · والكتاب أو الرواية الجيدة التى تصادف نجاحا ويستحسنها الجمهور ، ليست هى الجيدة فى افكارها وموضوعها ولغتها فحسب ، بل هى التى درس كاتبها ــ فوق ذلك ــ عقلية القارىء ، وكتب كتابه أو روايته على النمط الذى يفهمه ، وشعر بالصعوبات التى قد يجدها القارىء فذللها ·

قال قائل لابى تمام ، وكان شعره غامضا ، وخياله بعيد المنال : « لم لا تقول ما يفهم ؟ » فقال ابو تمام : « لم لا تفهم ما يقال ؟ » ، والحق مع القائل لا مع ابى تمام ، فعلى الشاعر أولا ان يراعى عقلية جمهور السامعين لا الخاصة وحدهم ·

٣ ــ مطابقة الاسلوب لنفس المتكلم أو الكاتب ، فكثيرا ما يتكلف فى كتابته ، ويقلد غير شخصيته فيعرج كلامه سمجا ثقيل الظل ، فترى بعض الناس يتحدث فيحسن حديثه ، فاذا كتب سمجت كتابته ، لأنه فى الأولى طابق نفسه ، وفى الثانية تابع غيره ، فخرج الكلام ، من روح غير روحه فسمج ·

فتهذيب الذوق الأدبى حتى يعرف به ما يناسب الموضوع وما لا يناسب ومعرفة طبائع الناس وعقلياتهم ، وقدرة الكاتب على تصوير مشاعره واستمداده كلامه من روحه الى كل ما يلزم الاديب ليكون اسلوبه بليغا ·

وننتقل من ذلك الاجمال الى التفصيل ، فنقول :

البلاغة يوصف بها الكلام والمتكلم ، ولا يوصف بها المفرد ، فنقول :

كلام بليغ ، ومتكلم بليغ ، ولا تقول : لفظ بليغ ·

وكلمة اتصال Communication تمتاز بالتعبير عن **الغرضية والتفاعل** معا ، بمعنى انها تنطوى على معنى القصد أو التدبير ، وكذلك تعنى **التفاعل**

او **المشاركة** . واللفظ الاوربي مشتق من الأصل اللاتيني للفعل Communicare بمعنى : **يذيع او يشيع وهذا هو الاتصال الشخصي** ، او بين شخص وعدة اشخاص ، أو جماعة ، وهو **الاتصال الجمعي المباشر** ، وقد يجري بين شخص أو مؤسسة وعدة جماعات متفرقة لا تتصل ببعضها البعض ولا ترى مصدر الاتصال وجها لوجه ، وهذا هو **الاتصال الجماهيري** (١) ، الذى يعتبر **التحرير الاعلامي** صلبه ومنطلقه ، اذ يتوسل هذا النوع بوسائل جماهيرية هي وسائل الاعلام .

وتشير دائرة المعارف البريطانية (٢) الى معنى الاشاعة ، أو مشاركة شيء ما بين شخصين او عدة اشخاص او عدة جماعات من الناس (٣) . ويؤكد خاصية التفاعل التى تميز **التحرير الاعلامي** من انواع التحرير الأخرى . كما يؤكد على نتائج تلك الاتصالات او آثارها ، اذ لا يمكن تمييز الرسالة الاعلامية عن رسالة اخرى – مفهومة ومرفوضة – الا عن طريق هذه النتائج أو ردود الأفعال التى يمكن تقديرها . وهناك الكثير من تعريفات الاتصال ، منها التعريف الذى قدمه ليلاند براون Leland Brown وهو « **ان الاتصال عبارة عن عملية نقل وتلقى الحقائق والآراء والشعور والاتجاهات والاحساس وطرق الاداء والتفكير بواسطة رموز من شخص الى آخر** » .

ونلاحظ تقاربا شديد الصلة بين هذا التعريف للاتصال ، وغيره ، وبين المفهوم العربى **للبلاغة** التى تنبيء لغة عن « **الوصول والانتهاء** » (٤) . يقال : **بلغ فلان مراده اذا وصل اليه** ، وبلغ الركب المدينة اذا انتهى اليها ، وأبلغه هو ابلاغا ، وبلغه تبليغا ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت السلمى :

قالت ولم تقصد لقيل الخنى   مهلا فقد **ابلغت** اسماعى

اى قد انتهيت فيه وانعمت ، وتبلغ بالشيء . وصل الى مراده ، وبلغ مبلغ فلان ومبلغته . وفى حديث الاستسقاء : « واجعل ما انزلت لنا قوة **وبلاغا** الى حين » . **والبلاغ** ما يتبلغ به ويتوصل به الى الشيء المطلوب . والبلاغ ما بلغك ، والبلاغ : الكتابة .

---

(١) دكتور ابراهيم امام الاعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٤ .
(٢) طبعة ١٩٦٥ .
(٣) مجلة الفن الاذاعى ٤٦٤ م ١٣ يناير ١٩٦٩ .
(٤) شروح التلخيص ج ١ ص ٧٣ .

وتقول له : فى هذا بلاغ وبلغة وتبلغ · أى كتـابة ، **وبلغت الرسـالة** ، والبلاغ الابلاغ وفى التنزيل « **الا بلاغا من الله ورسالاته** » أى لا أجـد منجى الا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به ، **والابلاغ** : الايصال ، وكذلك التبليغ ، والاسم منه البلاغ ··· وفى الحديث « **كل رافعة رفعت عنا من البلاغ فليبلغ عنـا** » يروى بفتح الباء وكسرها ، وقيل من أراد من المبلغين ·· وبلغت المكان بلاغا · وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت عليه ، ومنه قوله تعالى : « **فاذا بلغن أجلهن** » أى قاربنه ، وبلغت النخلة وغيرها من الشجر : حان ادراك ثمرها ، وشىء بالغ أى جيد ، وقد بلغ فى الجودة مبلغـا · ويقال : أمر الله **بلغ بالفتح** أى بالغ من قوله تعالى : « **ان الله بالغ أمره** » وأمر بالغ وبلغ : نافـذ يبلغ أين أريد به ، والبلاغة ، الفصاحة ، والبلغ : البليغ من الرجـال ، ورجـل بليغ ، وبلغ من الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه ، والجمع بلغاء وقد بلغ بضم اللام بلاغة أى صار بليغا ، وقول بليغ : بالغ ، والبلغن ، التمام والبلغن ، الذى يبلغ للناس بعضهم حديث بعض (١) ·

والرأى عندنا أن الدلالة اللغوية العربية للبلاغة هى المقابل الصحيح لما نسميه اليوم بعلم الاتصال Communication ، فان فن البيان ، أو فن النقد ، أو فن البلاغة مما نشأ فى العصر العباسى الثانى ، ومعنى ذلك أن العرب كانوا اذا أطلقوا لفظ البيان ، أو البلاغة ، لم تنصرف الى علم خاص ، أو اصطلاح محدد ، وانما كانت تنصرف الى معانيها اللغوية (٢) ، ونعنى بتأكيد أن الدلالة اللغوية للبلاغة أقرب لظاهرة الاتصال ، لأن الباحثين عن حياة البلاغة لايلبثون أن يتعجلوا ظهور أقسام البلاغة الثلاثة ، من المعانى ، والبيان ، والبـديع ، على ما استقر عليه الأمر فى ذلك أخيرا (٣) ·· والنظر فيما عداه من أوليات الفنون الثلاثة يكشف بجلاء أنها ليست كذلك · فما كتبه الجاحظ ، ومعاصروه فى القرن الثالث ليست الا نظرات عامة ، مرسلة ، لا تلتحق بفن من الفنون الثلاثة ، بل تصبح نثرات من كل واحد منها ، وشذرات ، متفرقة ، سانحة ، فليست من علم المعانى بمعنـاه الأخير ، ولا تعـد أولية له · وليس فى ذلك التأكيد أى غض من قيمة البلاغة العربية ، وانمـا على النقيض **لأن دلالتهـا اللغوية أعمق بكثير حين تقابل المقصود من علم الاتصال وهو علم أشمل من دراسة الجزئيات البيانية أو البديعية** ، هو علم أقرب حقيقة الى ما يسـميه الاستاذ أمين الخولى رحمه الله بفن « القول » كيف وبم يكون ، ولو أن فى ذلك تحديدا لجانب من جوانب الاتصال أو البلاغة العربية ، ونعنى به « **التحـرير الاتصالى** » · ولذلك لم يهتموا بالتفريق بين البلاغة والفصاحة أولا ، كما يظهر

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة بلغ ·

(٢،٣) أمين الخولى : مناهج تجديد ص ١٠٩ ، ١٢٢ ·

من استعمال الجاحظ فى البيان والتبيين ، وكما يقول أبو هلال العسكرى ـ الصناعتين : ص ٧ ط الأستانة سنة ١٣٢٠ هـ ـ : **« واذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف أصلاهما ، فان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له »** .

ولقد كان اختلاف فى الأصل اللغوى سبب تفريق بينهما ، على حد تعبير الشيخ أمين الخولى ، ظل ينمو مع الزمن حتى استقر الاصطلاح التعليمى الغالب ، على أن الفصاحة توصف بها الكلمة والكلام والمتكلم ، وأنها تكون بدون البلاغة ، وأن البلاغة يوصف بها الكلام والمتكلم دون الكلمة المفردة ، ولا تكون بدون فصاحة ؛ وظلت الكتب المتأخرة تشير الى امكان التسوية بين الكلمتين ، وان كنا نذهب الى أن هذه التسوية انما تندرج تحت اطار الظاهرة العامة التى **يقابل فيها المدلول اللغوى العربى لكلمة « البلاغة » مفهوم « الاتصال » بمعناه المتعارف عليه** .

وعلى ذلك فان الارتباط الوثيق بين اللغة والاتصال ، واعتبار اللغة أهم وسيلة فى عملية التحرير ، لا يعنى أن « اللغة والاتصال مترادفان » ، ذلك أننا اذا استمعنا الى حوار أو مناقشة قصيرة بين اثنين أو أكثر ، فاننا سنستمع الى عبارات متبايلة مثل : « الآن ، ماذا تحاول أن تقول كذا ‥ » و « ذلك ليس قصدى » ، و « فى الواقع ‥ يعنى ، أريد أن أقول ‥‥ الخ » ، الأمر الذى يبين لنا كيف أن قدرة البشر على استعمال اللغة ـ اللسانية ـ للتعبير عن ذواتهم ، لا يعنى بالضرورة القدرة على تمكنهم من الاتصال بالآخرين ، وتحقيق أهداف هذا الاتصال . فاللغة اللسانية ليست فى كل الأحوال مرادفة للاتصال ، لأن هناك الاشارات والعلامات وغيرها مما يقوم بوظيفة اللغة اللسانية (١) .

نحو بلاغة جديدة

ان موضوع العلاقة بين البلاغة والأجناس الاعلامية يتطلب نوعا من الاتفاق حول المصطلحات الأساسية ، وربما يعن لنا أن نصطنع هنا المنهج الذى يصطنعه علماء اللغة اللسانية عندما يفترضون وجود أصول مشتركة لجميع أو معظم اللغات اللسانية التى يتوسل بها الناس فى الابانة عن أنفسهم والاتصال بغيرهم وهم يتصورون أن هناك سلالات لغوية وأن كل سلالة انما انحدرت عن أصل أطلقوا عليه مصطلح **اللغة الأم** . وعلى هذا النهج يستطيع الدارس لعلاقة

---

(١) News Colin : Communication, p. 67, 1

اللغة بهذه الأجناس الاعلامية ، أن يفترض أيضا وجود لغة يمكن أن تعد بمثابة الأم لجميع الفنون التى استوعبتها حضارة الانسان ٠

واذا كنا قد ذهبنا الى أن الوظائف الاعلامية هى التى خلقت الوسائل أو الأجناس الاعلامية ، فاننا نستطيع أن نطرح هنا قانونا اعلاميا ، يذهب الى أن **البلاغة الجديدة ترتبط بكل جنس اعلامي** ، ذلك ان كل جنس أو وسيلة من وسائل الاعلام اثار كل منها املا واثار سخطا ، واصبح كل منها وسيلة للتأثير ذات قوة وسيطرة على عقول الناس ٠ ولكن هذه القوة واحدة بينها جميعا ؛ ذلك انها ليست كامنة فى الوسيلة ذاتها وانما فى النزعات المغمورة فى أعماق الناس ، والتى يعبر عنها باللغة الانسانية ، جاءت وسائل الاعلام فأظهرت تلك النزعات لكنها لم تخلقها كما أن مصدر هذه القوة نفسه متاح لهذه الوسائل جميعا ٠ واذا كان المصدر واحدا فان الأساليب مختلفة ، لأن لكل جنس اعلامي أسلوبه وخصائصه الأمر الذى يجعل «**الرسالة**» الاعلامية ليست مضمونا فحسب وانما ٠٠ « **فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع وللحالة وللوسيلة الاعلامية على حالة المستقبل** » ٠٠ فاللغة فى كل وسيلة من وسائل الاعلام تتميز بطبيعة جنسها الاعلامي الذى ينحو نحو اختيار اللغة والأسلوب والبلاغة ، ولذلك فان لغة الجنس الصحفى لها خصائص تتميز بها عن لغة الجنس الاذاعي المسموع مثلا ، وليس ثمة تعارض بين الأجناس الاعلامية ، فالجنس الاذاعي المسموع لم يقض على الجنس الصحفى المقروء ، وقد اثبتت دراسات عديدة أن الاستماع الى الراديو لا يتنافس بالضرورة مع قراءة المادة المطبوعة ، وان كان يتكامل معها ؛ **فاللغة فى كل** وسيلة او جنس اعلامي تختلف باختلاف المقدرة الاقناعية لهذه الوسيلة أو ذاك الجنس الذى له امكانات وخصائص ومميزات ٠٠

ولقد تنبه علماء البلاغة العربية الى ما نذهب اليه من أن اللغة هى الجنس الاعلامي ، نذكر من ذلك ما كتبه « **ابو الحسين الكاتب** » فى كتاب « **البرهان فى وجوه البيان** » ، والذى نسب خطأ لقدامة بن جعفر بعنوان « **نقد النثر** » يقول ان « **البيان على اربعة أوجه فمنه بيان الاشياء بذواتها** » وان لم تبن بلغاتها ومنه **البيان الذى يحصل فى القلب** عند اعمال الفكر واللب ومنه **البيان باللسان** ومنه **البيان بالكتاب** وهو الذى يبلغ من بعد وغاب (١) » ٠

---

(١) أبو الحسين الكاتب : (تحقيق د٠ أحمد مطلوب و د٠ خديجة الحديثى) البرهان فى وجوه البيان ــ بغداد ص ٦٠ وما بعدها ٠

وفي تقديرنا ان هذا العالم العربي الذي الف كتابه بعد عام ٣٣٦ هـ ٠ قد وضع لعلماء الاتصال تصنيفا علميا قبل أن يضع رويش Ruesch وبتسون Bateson تصنيفهما الرباعي للاتصال (١) والذي يتفق الى حد كبير مع تصنيف صاحب « البرهان » ، وحيث يذهبان الى تقسيم الاتصال الى أربعة اقسام :

الأول : وهو الاتصال الذاتي Intrapersonal اى الاتصال بين الفرد وذاته ، وهو يتمثل فى الشعور والوعى والفكر والوجدان والعمليات النفسية الداخلية ٠ وفى هذا الاتصال الذاتى يقع الوجهان الأولان عند صاحب « البرهان » يقول :

والاشياء تبين للناظر المتوسم والعاقل المتبين بذواتها وبعجيب تركيب الله فيها ، وآثار صنعته في ظاهرها كما قال تعالى : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » (سورة الحجر / ٧٥) وقال : « **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** » (سورة العنكبوت / ٣٥) ٠

« ولذلك قال بعضهم : قل للأرض : من شق انهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فان اجابتك حوارا والا اجابتك اعتبارا » فهى وان كانت صامتة فى انفسها فهى ناطقة بظاهر احوالها ٠ وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربع وخاطبت الطلل ونطقت عنه بالجواب على سبيل الاستعارة فى الخطاب ٠ وقد قال الله عز وجل فى هذا المعنى : « **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم** » (سورة الروم / ٩) وقال الشاعر (من الكامل) :

يا ربع عبلة بالجناب تكلم

وابن لنا خبرا ولا تستعجم

مالى رايتك بعد اهلك موحشا

خلقا كحوض الباقر المتهشم

فاستنطق ما لا ينطق بلسانه ، لأن احواله مظهره لبيانه ، وقال آخر فاجاب عن صامت غير مجيب ، لما ظهر من حاله للقلوب (من الطويل) :

---

(١) Ruesch J. and Bateson G. Communication (N.V.)

فاجهشت للتوبــاد حــين رأيتــه
وكبر للرحمـــــن حـــين رآني

فقلت لــه : أيــن الذين عهــدتهم
حواليــك في عيش وخــير زمــان

فقال : مضوا واستودعوني ديارهم
ومن ذا الذي يبقى على الحــدثان ؟

« وانما تعبر هذه الأشياء لمن اعتبر بها ، وتبين لمن طلب البيان منهــا ، **ولذلك جعل** الله عز وجل الآية فيها لمن توسم وتفكر وعقل وتذكر ، **فقال** : « **ان في ذلك لآيات للمتوسمين** » و « **ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » (سورة الرعد ٣) و « **ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (الرعد / ٤) و « **ان في ذلك لآية لقــوم يذكرون** » (النحل : ١٣) . فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبر بهــا ، وطلب البيان منها . فاذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالما بمعاني الأشياء وكان ما يعتقد من ذلك بيانا ثانيا غير ذلك البيان وخص باسم الاعتقاد » .

ومن ذلك يبين أن البلاغي العربي يقسم الاتصال الذاتي الى قسمين ، يحدثان داخل الفرد . وفي هذه الحالة فان المرسل والمستقبل شخص واحــد ، وهو — من هنا — يتفق مع النظرة الحديثة (١) التي تذهب الى أن الاتصــال الذاتي يتضمن الأنماط التي يطورها الفرد في عملية الادراك ، أي الأسلوب الذي ييسر له الملاحظة والتقويم واضفاء معنى على الأفكار والأشياء المحيطة بــه .

فالاتصال الذاتي اذن يضم وجهين من وجوه البيان عند البلاغي العربي هما : **الاعتبــار والاعتقاد** ، وهو يشرح الوجه الأول فيقول (٢) :

« ان الظاهر من ذلك ما أدرك بالحس كتبيننا حرارة النار وبرودة الثلج على الملاقاة لهما ، أو ما أدرك بنظرة العقل التي تتساوى العقول فيهــا مثــل تبيننا أن الزوج خلاف الفرد ، وان الكل أكثر من الجزء . والباطن ما غــاب

---

1) Ronald L. Applbaum, et al, Fundamental Concepts in Human communication C.N.Y. : Harper and Raw 1973). pp. 12—13.
و د. جيهان رشتي الأسس العلمية لنظريات الاعلام ص ٨٢ .
(٢) **البرهان في وجوه البيان** .. مرجع سبق ص ٧٢ .

عن الحس ، واختلفت العقول في اثباته ، فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له ، لأنه لا خلاف فيه ، والباطن هو المحتاج الى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال ، ويعتبر بوجوه المقاييس والأشكال ، والطريق الى علم باطن الأشياء في ذواتها والوقوف على أحكامها ومعانيها من جهتين ، وهما : **القياس والخبر** » ٠

والبلاغي العربي يذهب الى ما ذهب اليه العلماء المحدثون من أمثال بركرو ويزمان » (١) من أن الكائن الحي يتأثر بمنبهات داخلية سيكولوجية وفسيولوجية ومنبهات خارجية موجودة في محيطه يتلقاها الفرد في شكل نبضات عصبية تنتقل الى العقل الذي ينتقي منها ويفكر فيها ، ويتخذ قراره وفقا لعملية تمييز ، تليها عملية اعادة تجميع للمنبهات التي تم اختيارها في مرحلة التمييز ، ثم يتم ترتيب تلك المنبهات في شكل خاص له معنى عند الفرد القائم بالاتصال الذي يحولها الى رموز فكرية ، قبل أن يبعث بها في رموز مادية ملموسة يتلقاها مستقبل آخر ، أي قبل أن يتحول الاتصال الذاتي الى نمط آخر من أنماط الاتصال ٠

ويذهب البلاغي العربي الى أن هذه العملية التي تحدث عنها « بركر وويزمان » من بعد ، تتم عن طريقين هما : **القياس والخبر** ، وحجته في القياس « أن الله ــ عز وجل قال : « **فاعتبروا يا أولي الابصار** » (الحشر : ٢) وكذلك الأمثال التي جاءت في كتابه) « مثل كذا وكذا » في مواضع كثيرة ، وذلك كله تشبيه وقياس ، وأيضا فقد قاس في كتابه ، فقال لمن حرم وحلل وهو جاحد للرسل الذين يأتون بالتحليل والتحريم : « **ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا** » (الانعام / ١٤٤) وقال :« **قل الله اذن لكم ، أم على الله تفترون** » (يونس / ٥٩) ٠ فلما لم يمكنهم ان دعوا ان الله سبحانه شافههم بذلك ، وكان من قولهم واعتقادهم ابطال الرسل الذين يؤدون عن الله ــ عز وجل أمره ، تبين لهم أن الذي شرعوه لأنفسهم ضلال وبهتان من غير حجة ولا سلطان ، فقال لهم بعد أن تبين ذلك منهم : « **فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » ٠ (الأنعام ١٤٤) ٠

« ومن الحديث ما حدث به زبيد الايامي برفعه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل قوم على زينة من امرهم ، ومفلحة عند

---

1) G. Wiseman and L. Barker, Speech-International Comm.

انفسهم يردون على من سواهم » . والحق فى ذلك يعرف بالمقايسة عند ذوى الألبـاب (١) » .

وإذا كانت أوجه النشاط فى الاتصال الذاتى تتفاعل وتتأثر بنظرة **القائم بالاتصـال** فى الحيـاة ، وبكل الاعتبـارات الشخصـية والموروثة والثقافية والاجتماعية ، كما تتأثر بتجاربه (٢) فانها تتوسل بالخبر كما تتوسل بالقياس وحجة ابن وهب (٣) فى ذلك قول الله عز وجل : « **فاسألوا أهـل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » (الأنبياء / ٧) . **فاسـال الذين يقـرأون الكتـاب مـن قبلـك** » (يونس / ٩٤) . ولم يكن ليأمر بمسالتهم اذا لم تعلم الا واخبارهم تفيـدنا علمـا ، وتزيل عنا شكا . ومن الأثـر قول رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : « **نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها واداها** » وقوله : « **ليبلغ الشـاهد منكم الغائب** » ولم يأمر بذلك الا وابلاغ الشاهد الغائب يوجب الحجـة ، واستماع الغائب من الشاهد يكسب علما وفائدة » (٤) .

وعلى ذلك يمكننا أن نقـول ان نمـوذج البـلاغى العربى فى الاتصـال يختلف عن كثير من النماذج التى وصفت عملية الاتصال ، وكأنها تسير فى اتجاه واحد ، وهو اقرب الى نموذج « بارنلند » (٥) من حيث ان الاتصال عنده ذو طبيعة دائرية اى يسير فى اتجاهين من المرسل الى المستقبل ، ومن المستقبل الى المرسل ، ولم يقتصر هذا النموذج على الخصائص البنائية للاتصـال ، اى على المكونات مثل المصدر والرسالة والوسيلة والمستقبل ، بل يهتم أيضـا بالعـلاقة الوظيفية التى تحـكم الجوانب التكوينية وهـو يؤكد أن الاتصـال عملية ، كما يركز على العلاقات الفعلية التى تدخل فى ظاهرة الاتصال . وقد أكد « بارنلند » فى النموذج الذى قدمه عن الاتصال أهمية الدلالات المتنوعة التى تصنع التأثيرات الداخلية والخارجية (٥) . أو « **الاعتقاد** » و « **الاعتبار** » ، كما يذهب الى ذلك « ابن وهب » . وقد رأينا انه يذهب الى أن الاعتبـار يتوسل **بالقياس والخبر** . والخبر منـه يقين ومنـه تصـديق ، **فاليقين** ينقسم ثـلاثة

---

(١) البرهان فى وجوه البيان نفس المرجع ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) د . جيهان رشتى نفس المرجع ص ٩ .

(٣) البرهان فى وجوه البيان نفس المرجع ص ٧٥ .

(٤) البرهان فى وجوه البيان : نفس المرجع ص ٧٥ .

(٥) د . جيهان رشتى نفس المرجع ص ٨ ،٩ .

3) Dean Barnlund, Interpersonal Comm : Survey and Studies (Baston : Haughton Mifflin (1968) pp. 26—27.

أقسام (١) ٠ أحدهما : خبر الاستفاضة والتواتر الذي يأتي على ألسن الجماعة المتباينة هممهم وارادتهم وبلدانهم ، ولا يجوز أن يتلاقوا فيه ويتوا طأوا عليه ، فذلك يقين يلزم العقل الاقرار بصحته ٠ وبهذا النوع من الأخبار الزمنا الله – عز وجل حجج الأنبياء عليهم السلام ونحن لم نشاهدهم ولم نرآياتهم ٠ والثاني : خبر الرسل عليهم السلام – ومن جرى مجراهم من الأئمة الذين قد قامت البراهين والحجج من العقل عند ذوي العقول على صدقهم وعصمتهم ، وظهور المعجزات التي لا يجوز أن تكون نوع من الحيل ٠ والثالث : ما تواترت أخبار الخاصة مما لم تشهده العامة فأن تواترهم في ذلك نظير تواتر العامة (٢) ٠

وأما خبر التصديق فهو الذي يأتي به الرجل والرجلان والأكثر فيما لا يوصل الي معرفته من القياس والتواتر ، ولا أخبار المعصومين ولا يعلم الا من جهة الآحاد ، وذلك مثل الفتيا في حوادث الدين التي ابتلي بها قوم دون أخرين ٠ وقد يستنبط علم باطن الأشياء بوجه ثالث وهو **الظن والتخمين** وذلك فيما لا يوصل اليه مقياس ولا يأتي فيه خبر ٠ وفي الظن حق وباطل (٣) ٠

وهكذا يذهب ابن وهب الى أن ما تبين عنه الأشياء بذواتها في الاتصال الذاتي يقوم علي « **اليقين** » ، وهو ما تعترف العقول بصحته ويلزمها الاقرار به ٠ و « **تصديق** » وهو تقنع النفوس به ، وان كان في الممكن أن يقع أو غيره أوكد من موقعه ٠ و « **ظن** » قد احتيط فيه حتي وقع موقع اليقين عند مستعملة (٣) ٠

أما بيان « **الاعتقاد** » فانه يشكل مع بيان « **الاعتبار** » ما يحدث في عقل المرسل والمستقبل ، الأمر الذي يوضح أهمية الاطار الذي يحدث فيه الاتصال ، والقالب الاجتماعي الذي يحدث فيه التفاعل ، ذلك أن الأشياء اذا بينت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب ، صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلما مركوزين في نفسه ٠ وهذا البيان علي ثلاثة أضرب فمنه : حق لا شبهه فيه ، ومنه علم مشتبه يحتاج الى تقويته بالاحتجاج فيه ، ومنه باطل لا شك فيه (٤) ٠

ويذهب ٠٠ « بارنلند » الى أن نقل المعنى في الاتصال الشخصي أمر شديد التعقيد ، دينامي ومستمر ودائري لا يتكرر ولا يرتد ٠ وان المعنى « **يخلقه** » أو

---

(١) البرهان – نفس المرجع ص ٩٠ ٠
(٢ ، ٣ ، ٤) البرهان – المرجع ص ص ٩٠ – ١٠٦ ٠

« يصنعه » القائمون بالاتصال حينما يستجيبون للدلالات المادية والسيكولوجية عند القائمين الآخرين بالاتصال ، وذلك مع دلالات أخرى موجودة في الظروف المحيطة • ولعلنا نستطيع الافادة من نموذج « بارنلند » في فهم الاتصال الذاتي عند البلاغي العربي •

في هذا الشكل يتضح أن الفرد نظام اتصالي يفك الرمز ويعطي لرموز عديدة متوافرة في مجال ادراكه عن طريق تحويل الأشياء التي يميزها حسيا الى دلالات أو رموز لغوية تظهر للآخرين • وهناك على الأقل ثلاثة أنواع من العلاقات أو الدلالات الادراكية التي يعطيها الفرد معنى في هذا الظرف هي (١) :

ما يسميه ابن وهب (٢) : « **الحق الذي لا شبهة فيه أو « علم اليقين »** » واليقين ما ظهر من مقدمات قطعية لظهور الحرارة للمتطبب عند توقد اللون وسرعة النبض واحمرار البول ، أو عن مقدمات ظاهرة في العقل كظهور تساوي الأشياء اذا كانت مساوية لشيء واحد ، وكظهور زيادة الكل على الجزء •• أو عن مقدمات خلقية مسلمة بين جميع الناس كظهور قبح الظلم ، وكل خبر أتى على التواتر من العامة أوالتواتر من الخاصة أو سمع من الأنبياء وكل هذا يوجب العلم • ومن شك في شيء منه كان اثما ، ولذلك صار من شك في الباري – عز وجل كافرا ، لأن نتيجة المعرفة به عن مقدمات ظاهرة للعقل • وكذلك من شك فيما تواترت به الرواية أو تضمنه الكتاب الذي نقله من تجب بنقله الحجة » (٣) •

وهذه الدلالات قد تتكون من المشتبه الذي يحتاج الى التثبت فيه ، واقامة الحجة على صحته ، فكل نتيجة ظهرت عن مقدمات غير قطعية ، ولا ظاهرة للعقل بانفسها ولا مسلمة عند جميع الناس ، بل قد تكون مسلمة عند اكثرهم ، أو يظهر للعقل تغيرها ، وتغير الفحص عنها ، والاستدلال عليها ، وذلك كرأي كل قوم في مذاهبهم ، وما يحتجون به لتصحيح اعتقاداتهم ، ونحلهم • وكل خبر أتى به الآحاد والجماعات التي لا يبلغ خبرهم أن يكون متواترا بل يجوز على مثلهم في العادة الاجتماع على الكذب والاتفاق عليه اذا كانوا عدولا ولم يخالف قولهم ما جرى به العرف والعادة ، وذلك مثل روايات كل قوم فيما اعتقدوه واخبارهم عن أهل العدالة عندهم فيما اجتلبوه ، وكل ظن قويت شواهده وكان الاحتياط في الرأي والدين تغليبه ، وكل هذه الأمور التي

---

(١) د• جيهان رشتي : نفس المرجع ص ١٠١ •
(٢،٣) البرهان ص ١٠١ •

عددناها فانما ياتي العلم بها على التصديق لا على اليقين ، والحجة على معنى الاقناع لا البرهان ، وهى توجب العمل ولا توجب العلم » (١) ٠

ومن ذلك يتضح أن الدلالات قد تكون عامة ، وقد تكون خاصة ، قد تكون لفظية وقد تكون غير لفظية فى شكلها ، وأن وجهى البيان اللذين ذكرهما ابن وهب : **الاعتبار والاعتقاد** ، انما هما وجهان **للاتصال الذاتى** ، بالمصطلح الحديث ٠ والاعتبار والاعتقاد كما تحدث عنهما البلاغى العربى يكشفان لنا عن الطريقة التى يتصل بها الانسان مع نفسه و « **ينفرد بها وحده** » على حد تعبير ابن وهب (٢) ٠

والنوع الثانى من الاتصال فى تقسيم « رويش » و « بيتسون » هو **الاتصال الشخصى** ، أى بين فرد وفرد آخر ، وهنا يعانى الاتصال من فقد بعض المعلومات ٠ ويقابل هذا الاتصال الشخصى ، فى تصنيف ابن وهب (٣) : **البيان باللسان** ، ذلك أن ما يعتقده الانسان من بيان الاعتقاد ويحصل منه غير متعد له الى غيره قد أراد الله عز وجل أن يتم منه فضيلة الانسان ولذلك خلق له اللسان وأنطقه بالبيان ، فخبر به عما فى نفسه من الحكمة التى افادها ، والمعرفة التى اكتسبها ، فصار ذلك بيانا ثالثا ، أوضح مما تقدمه ، وأعم نفعا ٠ لأن الانسان يشترك فيه مع غيره ، والذى قبله انما ينفرد به وحده الا أن البيانين الأوليين بالطبع ، فهما لا يتغيران ٠ وهذا البيان ، والبيان الآتى بعده بالوضع فهما يتغيران بتغير اللغات ، ويتباينان تباين الاصطلاحات ٠ الا ترى أن الشمس واحدة فى ذاتها ، وكذلك هى فى اعتقاد العربى والعجمى ، فاذا صرت الى اسمها وجدته فى كل لسان من الألسن بخلاف ما هو فى غيره ٠ وكذلك الكتاب فان الصور والحروف تتغير فيه بتغير لغات أصحابه وان كانت الأشياء غير متغيرة بتغير الألسن المترجمة عنها ٠ ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **المرء مخبوء تحت لسانه فاذا تكلم ظهر** » ٠٠ وهذا من أشرف الكلام وأحسنه وأكثره معنى وأخصره ، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته ، الا اذا خاطبته وسمعت منطقه ، ولذلك قال بعضهم وقد سئل : فى كم تعرف الرجل ؟

قال : « ان سكت ففى يوم ، وان نطق ففى ساعة ، وقال بعض الحكماء : « ان الله ـ سبحانه ـ أعلى درجة اللسان على سائر الجوارح فانطقه بتوحيده » ٠

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ ٠

(٢،٣) البرهان ص ٦٠ ٠

واذا كان الاتصال الذاتي يحدث داخل الفرد ، فان الاتصـال الشخصي يحدث بين فردين ، بحيث نجد نفس عناصر الاتصال الذاتي فى عملية الاتصال الشخصي . ومن النماذج اللفظية المصورة الأولى النموذج الذى قدمه « كلود شانون » سنة ١٩٤٨ ، على أساس من المفاهيم الرياضية بحيث يشمل مصدرا يختار رسالة يتم وضعها فى رموز بواسطة جهاز ارسال يحول الرسالة الى اشارات ، ثم يقوم جهاز الاستقبال بفك الرموز ، ويحولها الى رسالة يستطيع الهـدف استقبالها . والتغيرات التى تطرأ على الرسالة فى جهـاز الارسال وجهاز الاستقبال ترجع الى حدوث التشويش . وقد قال « شانون » ان الاتصال يمكن دراسته من الناحية الفنية « بتاكيد المشاكل الفنية فى ارسال الاشارة » أو من الناحية الدلالية (بتاكيد مشـاكل المعنى) أو من ناحيـة التاثير بتاكيد النتائج السلوكية) (١) .

وقال الشاعر العربي ملخصا هذا النموذج :

وهذا اللسان بريد الفؤا د ، يدل الرجال على عقله

وقال آخر :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التـكلم

فاللسان ترجمـان اللب وبريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد بالصـحة والفساد . كما قال الشاعر (من الكامل) (٢) :

ان الكلام لفى الفؤاد وانمـا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وفيه الجمال كما قال الله عز وجل ـ « ولتعرفنهم فى لحن القول » (محمد ٣٠) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد ساله العباس فقال : فيم الجمال يا رسول الله ؟ فقال : فى اللسان . الا انه لما كان النقص للناس شاملا والجهل فى اكثرهم فاشيا وكان كثير منهم .

أما الرابع فهو الاتصال الثقافى Cultural حيث تتفاعل البيئة الثقافية فى شكل عمليات اجتماعية ، تتنوع فيهـا المعلومات والمؤثرات والمنظمـات ،

---

(١) د. جيهان رشتى ، نفس المرجع ص ١١١ ،

Claude Shannon and Warren Weaver, The Mathematical Theory of Comm. (Urbans, 1969).

(٢) البرهان فى وجوه البيان ص ٦٣ .

وتلعب الجماعات المواجهية والكلمات والأساطير ووسائل الاعلام أدوارها المعقدة للغاية . وقد ذهب « رويش وبيتسون » الى أن **الاتصال الانساني نوع من الاتصال الألكتروني** ، غير أن البحوث التي أتت فيما بعد أخذت توضح أن التعرض للمعلومات ليس تعرضا سلبيا ، لأن الجمهور المستقبل يلعب دورا ايجابيا في استقبال الرسالة ، ولا تقوم الرسالة في واقع الأمر الا باعادة تنظيم العناصر النفسية عن طريقة الرمز أو الاشارة أو الموضوع ، وكثيرا ما يرفض المستقبل الرسالة ولا تؤثر فيه اذا كان ذلك يتعارض مع قيمه ومبادئه وافكاره (١) .

وتاسيسا على هذا الفهم ، فان البلاغي العربي حين يتحدث عن **البيان بالكتاب** ، انما يتحدث عن نوع من الاتصال مختلف عن الاتصال الذاتي ، والاتصال الشخصي ، ذلك أن البيان بالكتاب كما يقول « ابن وهب » (٢) : هو « **الذي يبلغ من بعد وغاب** » .. ذلك ان الله عز وجل اراد أن يعم بالنفع في البيان جميع أصناف العباد وسائر آفاق البلاد ، وأن يساوي فيه بين الماضين من خلقه والآتين ، والأولين والآخرين ، ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحوا عليها ، فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم وعبروا به عن ألفاظهم ، ونالوا به ما بعد عنهم ، وكملت بذلك نعمة الله عليهم ، وبلغوا به الغاية التي قصدها عز وجل في افهامهم وايجاب الحجة عليهم ، ولولا الكتاب الذي قيد على الناس أخبار الماضين لم تجب حجة الأنبياء على من أتى بعدهم ، ولا كان النقل يصح عنهم ، ولذلك صارت الأمم التي ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب، وقد امتدح الله عز وجل تعليم الكتاب في كتابه ، وبين احتجاجه على الناس به فقال : « **اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق ٣ ، ٤ ، ٥) وقال عز وجل : « **أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى** » (طه ١٣٣) وقال : « **ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين** » (الأحقاف ٤) .

فالاتصال بالجماهير اذن يتم من جانب واحد لكي يبلغ من « **بعد وغاب** » على حد تعبير البلاغي العربي ، فلا تتاح للقارىء أو المستمع أو المشاهد طريقة سهلة لكي يوجه الأسئلة ، أو يعقب أو يستوضح ما عرض عليه ، واذا كان الاتصال الشخصي يمتاز بتعديل الرسائل المتبادلة على ضوء رجع الصدى Feedback من المستقبل الى المرسل ، فان وسائل الاعلام تفقد هذه الميزة

---

(١) د. ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ، مرجع سابق ص ٦٠٤ .

(٢) البرهان في وجوه البيان : نفس المرجع ص ٦٦ وما بعدها .

الكبيرة ، ولكنها تحـاول التعويض عنها بدراسات تجريبيهـا على الجمـاهير وميولها واتجاهاتها (١) ٠

فيختلف الاتصال بالجماهير عن الاتصال الشخصي ، من حيث انعــدام الطابع المواجهي ، وفقدان صفة التخاطب مع فرد بعينه ، ولذلك قيل : « **الكتاب احد اللسانين** » ، باعتبار الكتاب وسيلة من وسائل الاتصال بالجماهير ، وقيل : « **القلم ابقى اثرا واللسان اكثر هذرا** » وقالوا : « **اللسان مقصور على الشاهد** » (أى الاتصال الشخصى) **والقلم** (الاتصال الجماهيرى) **ينطق فى الشـاهد والغـائب** » ٠ وقال بعضهم : « استعمال القلم اجـدر أن يحضر الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام » (٢) ذلك أن المرسل فى الاتصال الجماهيرى يختار الفئة التى يوجه اليها رسالته ٠

وقد أصبح الاتصال بالجماهير بعد التقدم التكنولوجى فى المجتمع ، قادرا على الوصول الى عدد ضخم من الناس ، ولهذا السبب لا يتطلب الأمر وجود عدد كبير من وسائل الاتصال كما كان فى الماضى ٠ فالرسالة فى الاتصال الجماهيرى « **تقرأ بكل مكان وتدرس فى كل زمان** » و « **اللسان لا يعدو سامعه ولا يتجـاوز الى من بعده** » (٣) ٠ وهـذا يشبه تماما ما يحدث فى أنظمـة المجتمع الاقتصادية والأجتماعية حيث يؤدى الانتاج الضخم للسلع بقليل من المصانع الى انتاج كميات هائلة من سلعة معينة (٤) ٠

ولقد تبين مما سبق عناية نموذج الاتصال بالمرسل والرسالة ، وسنحاول هنا أن نتناول عنصرى المستقبل والوسيلة ، فوفقـا لنموذج « ويلبور شرام » تتكون عملية الاتصـال الجماهيرى من **فكرة او باعث** Idea or impulse فى عقل المرسل ، وقد تكون الفكرة واضحة بصورة كافية بحيث تعتبر صالحة للتوصيل الى المستقبل ، وقد لا تكون كـذلك ٠ والعنصر الثـانى **هو التعبير الشكلى** أو تحرير الرسالة Formal Expression ، وقـد عنيت البـلاغة العربية بهذين العنصرين عناية كبيرة ، واقدم الآثار التى عرفها تاريخ البـلاغة هو تلك الصحيفة التى كتبها « بشر بن المعتمر » (ت ٢١٠ هـ) ٠ ولكن البـلاغة العربية عنيت كذلك بالعنصر الثالث فى عمليـة الاتصال الجمـاهيرى ونعنى **تفسير المستقبل** للرسالة Receiver Interpretation ، وهو ما عبـر عنه **بمطابقة الكلام لمقتضى الحال** ٠ ويقول بشربن المعتمـر فى ذلك ان مدار

---

(١) د٠ ابراهيم امام : نفس المرجع ص ٢٨ ٠

(٢،٣) البرهان فى وجوه البيان ، نفس المرجع ص ٢٦٤ ٠

(٤) د٠ ابراهيم امام : نفس المرجع ص ٢٩ ٠

الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقـام من المقال (١) ٠

وينبغي للمتكلم (المرسل) أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين (المستقبل) وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ٠٠ ولكل حال من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقـدار المستمعين على أقـدار تلك الحالات (٢) ٠ ومعلوم أن هذه المطابقة ترتبط بالعنصر الرابع في عملية الاتصال الجماهيري وهو : **استجابة المستقبل** Receiver Response للرسالة ، وردود الأفعال التي قد تصل أو لا تصل الى انتباه المرسل للرسالة الأصلية ، ولعلـه من أجل ذلك انتهى البلاغيون في حد البلاغة الى تلك الكلمة الموجزة « **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** » ٠

فاذا وصلت ردود الأفعال هذه فانهـا تكون عنصرا خامسا ، وهو **رجع الصدى** وتفسير المستقبل للرسالة ، أو عمليـة فك رموز رد الفعل بالنسـبة للرسالة ، وفي « **الأغاني** » ان العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فمـا قبلوه منها كان مقبولا وما ردوه منها كان مردودا ، فقدم عليهم علقمـة بن عبدة التميمي فانشدهم قصـيدته : (هل ما علمت وما استودعت مكتوم) ٠ فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العـام القابل ، فانشدهم قصـيدته : (طحابك قلب في الحسان طرب) ٠ فقالوا : هاتان سمطا الدهر (٣) ٠

ويبدو أن من الشعراء النـابهين من كان يقوم في سوق عكاظ مقـام (المستقبل) في عملية الاتصال الذي يفك الرموز ويفسر معناها ، ثم يستجيب لها معبرا عن رده أو انطباعه برسالة جديدة يصوغها في رموز ويبعث بها الى المرسل الأول الذي يستقبلها ويحل رموزها ويستجيب لها ، ويدرك رسـالته التالية على أساسها ٠ ففي أخبار النابغة الذبياني أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها اليه وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معـاني الشعراء وأساليبهم ، ويقال انه فضـل الأعشى على حسـان بن ثابت وفضل الخنساء على بنات جنسها ، وثار حسـان عليه وقال له : أنا والله أشـعر منك ومنها ، فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال حيث أقول :

(١،٢) البيـان والتبيين للجـاحظ ١/١٣٦ ، ١/١٣٩ ـ د٠ خفـاجي : الايضاح في البلاغة ص ٧٩ ٠

(٣) الأغاني ط ساسي ٢١/١١٢ ٠

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محـــرق
فاكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما (١)

فقال له النابغة : « انك لشاعر لولا انك قللت عــدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » . وفي رواية أخرى : « فقال له : انك قلت الجفنات فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان اكثر . وقلت : يلمعن في الضحى ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح ، لأن السيف بالليل اكثر طروقا . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين لكان اكثر لانصباب الدم ، وفخـــرت بمن ولدت ولم تفخـــر بمن ولدك فقـــام حســـان منكسرا منقطعا » (٢) .

ويقول الجاحظ عن النبى عليه الصلاة والسلام « انه لم ينطق الا عن ميراث حكمة ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة . وهو الكلام الذى القى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام ، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع الى معاودته ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعـا ولا اقصد لفظـا ولا أعدل وزنا ولا اجمل مذهبا ولا اكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا افصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم » (٣) .

وتأسيسا على هذا الفهم يذهب الجاحظ الى أنه « ان كان الخطيب متكلما تجنب الفاظ المتكلمين ، كما أنه ان عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا او مجيبا او سائلا كان أولى الألفاظ : ألفاظ المتكلمين ، اذ كانوا لتلك العبـارات افهم والى تلك الألفاظ أميل ، واليها أحن ، وبها اشغف ولأن كبـــار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعـاني ، وهم اشتقوا لهـــا من كلام العرب تلك

(٢،١) العنقاء : ثعلبة بن عمرو ومزيقياء أحد الأجداد الأزد القدماء في اليمن ، ومعروف أن الخزرج قبيلة حسان ازدية . ويريد بالمحـرق جبلة بن الحارث أمير الغساسنة في الشام لأوائل القرن السادس وهم أيضا من الأزد . (الأغـاني ط دار الكتب ٩/ ٣٤٠ د. شوقي ضيف : البـــلاغة تطور وتاريخ ص ١١) .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٧ .

الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرض والجوهر وايس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهزيمة والهوية والماهية وأشباه ذلك .. وانما طارت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني .

ولعل دراسة صاحب البرهان : كانت أول دراسة علمية للاتصال وألوانه وفنون تحريره ففيه دراسة للمنظوم والمنثور والخطابة والترسل وأدب الجدل وأدب الحديث ، وفيه دراسة لخصائص الرسالة الاتصالية ، كالتشبيه ، واللحن ، والرموز ، والوحي ، والاستعارة ، والتقديم ، والتأخير ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . ولقد تميز البرهان بدراسة الوسيلة « أو » قناة الاتصال « من حيث ارتباطها بالرسالة حين تحدث عن « **البيان باللسان** » و « **البيان بالكتاب** » ، وبذلك يكون قد أجمل الحديث عن الاتصال الذي لخصه « لازويل » في قوله المأثور : **من – قال – ماذا – في أية قناة – لمن – ما كانت النتيجة والأثر** ؟ ذلك أن الاتصال كما يقول « شرام » – يحاول اقامة مشاركة مع المستقبل ، فالمرسل يحاول توصيل معلوماته أو مشاعره التي يحولها الى كلمات مسموعة : (**البيان باللسان**) أو مكتوبة (**البيان بالكتاب**) على حد تعبير ابن وهب . فالوسيلة هي المنهج الذي تنقل به الرسالة من المرسل الى المستقبل ، فكما يتطلب انتقال الصوت من مصدره الى أذن المستمع وسيطا تنتقل فيه الموجات الصوتية ، كذلك يتطلب انتقال الرسالة من المرسل الى المستقبل أو بالعكس ، وسيلة ما تسمى أحيانا قناة . ومن هذه الوسائل أو القنوات اللغة اللسانية والاشارات والرسم والتمثيل ... الخ . وتستخدم الاختراعات الحديثة مثل السينما والراديو والتليفزيون في توصيل الرسالة الى عدد كبير من الناس .

فاللغة وهي الرموز اللفظية المسموعة (البيان باللسان) والمكتوبة (البيان بالكتاب) من أهم وسائل الاتصال استخداما وأكثرها شيوعا . ولذلك ذهبنا الى أن **البلاغة هي الوسيلة أو الجنس الاعلامي** . ذلك اننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نفصل بين اللغة والوعاء الذي يحملها الى المستقبل ، وقد تعرفنا على الارتباط الوثيق بين الرسالة والجمهور ، وضرورة التناغم والمشاركة بينهما ، وهذا الجمهور هو الذي يستقبل الرموز البلاغية ويعمل على ترجمتها الى آراء وأفكار .

ونستعير هنا تعبير « الأجناس الاعلامية » من دراسات الأدب وبحوثه « فالأجناس الأدبية » بالفرنسية Genres Litteraires وبالالمانية Literarischen gattenigs وبالأسبانية Générox Literaries أما في الانجليزية فلم يستقر التعبير Literary genres الا أخيرا في أوائل القرن العشرين ، وكان النقاد الانجليز يستخدمون أحيانا كلمة Species kinds أي أنواع أو أصناف ، وكذلك الحال في بحوث النقاد في أمريكا ولايزال بعضهم يستخدم مع الكلمة المستعارة من الفرنسية الكلمات الأخرى السابقة (١) ٠

وهذا التعبير في تصورنا من أكثر التعبيرات تصويرا للبلاغة الجديدة التي ترتبط بالوسائل الاعلامية المختلفة ارتباطا لا انفصام له بحيث تغدو « البلاغة هي الوسيلة » ٠

واذا كان هذا التعبير يصدق على الأدب فهو يصدق على الاعلام بالدرجة الأولى ولقد كان نقاد الأدب اليوناني ، وعلى رأسهم افلاطون وارسطو ، ولايزال النقاد ، في الآداب المختلفة ينظرون الى الأدب بوصفه أجناسا أدبية ، ونحن هنا ننظر لفنون الاعلام ، على أنها أجناس اعلامية ، أي قوالب عامة فنية تختلف فيما بينها ـ لا على حسب محرريها أو عصورها ، أو مكانها أو لغاتها فحسب ٠٠ ولكن كذلك على حسب بيئتها الفنية وما تستلزمه من طابع علم يشتق أساسا من طابع الوسيلة الاعلامية ، ومقوماتها المميزة لها عن غيرها من الوسائل ٠ وهو الطابع الذي يفرض نمطا من التعبير مميزا من حيث الصياغة التعبيرية الجزئية ٠ والتحرير الاعلامي العام الذي ينبغي الا يقوم الا في ظل الوحدة الفنية للجنس الاعلامي ، وهذا واضح كل الوضوح في الفن الاذاعي والفن الصحفي والفن المرئي في التليفزيون والسينما ، بوصفها أجناس اعلامية يتوحد كل جنس منها على حسب خصائصه مهما اختلفت اللغات والأشكال التي ينتمي اليها ٠

فالبلاغة الجديدة اذن صيغ أو قوالب فنية عامة ترتبط بوسائل الاعلام ، وتقوم على أساس من هذا الارتباط مميزاتها وقوانينها الخاصة ٠ وهي تحتوي على فصول أو مجموعات ينتظم خلالها الانتاج الفني الاعلامي ، على ما فيها من اختلاف وتعقيد ٠ فالفن الصحفي يحتوي على فصول من التحرير مثل : فن الخبر الصحفي وفن الحديث الصحفي وفن المقال وفن التحقيق الخ من فنون التحرير وقوالبه في الصحافة ٠ كما نجد أن الفن

---

(١) د ٠ غنيمي هلال : الأدب المقارن ص ١٢٩ ٠

الاذاعي يحتوي على مجموعات اخرى مثل : فن الخبـــر الاذاعي ـ الحديث الاذاعي ـ التعليق ـ التمثيلية الاذاعية ـ البرامج الخاصة الثقافية ... الخ . من الفنون التي تمثل في مجموعها جوهر « الجنس الاذاعي » في أجناس الاعلام ، وهي الفنون التي ينطبق عليها بوصفها « وسائل » قانون « البلاغة هي الرسالة » وفي الأدب يحدث نفس الشيء تقريبا حيث يختلف مســــتوى التعبير اللغوي بين الأجناس الأدبية على نحو ما نجد في الشعر من : ملحمة ومأساة وشعر تعليمي (١) .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فعلينا أن نميز في قانون : «البلاغة هي الوسيلة» بين الجنس الصــــحفي ، والجنس الاذاعي ، والجنس المرئي في الأجنـــاس الاعلامية على وجه الاجمال . وسنجد أن الجنس الاذاعي المسموع يمثل فيه الصوت مكان الرمز المدون في الجنس الصــحفي ، ويفتقـد العنصر المرئي في الجنس التليفزيوني أو السينمائي ولكننا في البلاغة الجديدة نجد « مجمعــا » للفنون ان صح هذا التعبير ، فهي تضم في أعطافها حضارة بأسرها بما في ذلك العادات والتقاليد ، ومقومات الكيان الاجتماعي العام . ولكل جنس اعــلامي مقوماته الخاصة وقوانينه واستعدادات يتطلبها وفقا لطبيعة وسيلة الاعــلام التي ينتسب اليها ، وطبيعة الفن الذي يتوسل به ، وعلى هذا تشبه الأجنـــاس الاعلامية الى حد ما الكائنات والأجناس ، والأسر ... الخ . على نحو ما هو معروف في التاريخ الطبيعي بأنها مجموعة من الأفــراد تتفق في الصــفات ، بحيث يمكن وضع كل مجموعة تحت اسم خاص ، وفي نفس الوقت تنفصل عن المجموعات الأخرى لما لها من صفات لا تتفق مع صفاتها الخاصة . وهكذا نجد أن الجنس الاذاعي مثلا يتميز بمجموعة من الفنون الخيالية والواقعية الاعلامية والتعبيرية التي تتفق في الصفات العامة رغم ما بينها من فوارق لا تؤثر على طبيعتها العامة .

واذا كان بوالو Boileau وغيره من النقاد في القرنين السابع والثامن عشر قد ذهبوا الى اعتبار الأجناس الأدبية قوالب جامدة وصورا ثابتــة غيــر متحركة ، تتكون في زمن ما من أجزاء متعـــددة ، ولا تخضع في المستقبل لأي تغيير .. فان ثورة الاعــلام والدراســات المرتبطة بوسائله وفنونه وتأثيــره دحضت هذا الاتجاه ، ذلك أن الأجناس الاعلامية توحي دائما بقبولها للتطور والرقي شأنها شأن الأجناس الحيوية ، أو بعبارة أخرى فان اللغة في كل جنس اعلامي تتميز بخصائص كل وسيلة ، فاللغة في مستواها الصحفي مثلا تسمح

---

(١) نظرية الأنواع الأدبية لمؤلفه M.L. AGBE CI-VINCENT
ترجمة : د. حسن عون ص ٢٧ .

للقارىء بالسيطرة على ظروف التعرض الاعلامى ، وقراءة الرسالة اكثر من مرة ، فضلا عن أن لديه فرصة تطوير الموضوع فى مساحة اكبر ، وفقا لأهميته ، وتشير التجارب الى أن المواد المعقدة من الأفضل تقديمها مطبوعة عن تقديمها شفهيا ، ولو أن نفس المزية لا تسرى على المواد البسيطة السهلة ٠ ومن الأفضل استخدام التحرير الصحفى فى مخاطبة الجماهير المتخصصة ، والجماهير صغيرة الحجم ، لأنه يقتضى من القارىء جهدا أكبر من ذلك الذى يقتضيه التحرير فى الأجناس الاعلامية الأخرى ٠

فالقارىء لا يحس بأنه شخصيا جزء من عملية التحرير الاعلامى ، كما يشعر مستمع الراديو أو المشاهد للسينما ، لأنه لا يشعر بأن الحديث موجه اليه شخصيا ، ولكنه فى نفس الوقت جزء من العملية أو مشترك فيها أكثر لأنه مضطر الى المساهمة الخلاقة فى نوع من أنواع الاتصال غير الشخصى ، ويفترض بعض الباحثين أن مثل هذه المساهمة الخلاقة لها مزايا اقناعية (١) ٠

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول أن البلاغة الجديدة عن طريق الوسيلة تعنى أن المستوى اللغوى لا يستقل عن تكنولوجية وسائل الاعلام ذاتها ، فالكيفية التى يتم بها التحرير اللغوى فى كل جنس على حدة تؤثر وتتأثر بمضمون تلك الوسائل وهذه الوسائل التى هى امتداد لحواسنا ــ كما يقول ماكلوهان ، هى أجناس اعلامية لكل جنس منها مستواه اللغوى فى التحرير ، ويقتضينا ذلك أن نعرف طبيعة كل جنس حتى نتمكن من السيطرة عليه واستخدامه الاستخدام الأمثل فى تطبيقات البلاغة الجديدة ٠

لقد ظل الاعلام طوال تاريخه كله فعالا فى محاربة التمييز ، على حد تعبير « شرام » ، الذى يقول أن دلالة تنمية الطباعة فى القرن الخامس عشر ليست فى أنها حولت الثقل الذى ظل قرونا طويلة على الاتصال المنطوق المباشر ، حولته الى الاتصال البصرى المنسوخ على نطاق واسع ، لم تفعل ذلك فحسب ، بل مدت ، وهو الأهم نطاق المعرفة ، فلم تعد مقصورة على حفنة من المحظوظين ، وأصبحت أداة الطباعة ما بين يوم وليلة أداة للتعبير السياسى والاجتماعى ٠ الثورات التى اندلعت فى أوروبا وشمال أمريكا ، لولا الطباعة ، لربما ظلت فى طى العدم ٠ والمدارس العامة كان من غير المحتمل ، ان لم يكن مستحيلا أن تقوم لها قائمة لولا الطباعة ٠ وظهرت فى القرن التاسع عشر تطورات جديدة فى الاتصال الجماهيرى ، لتقدم الاعلام والمعرفة لجماهير الناس فوق رءوس المحظوظين والخاصة من المتعلمين ، الديمقراطية السياسية والفرص

---

(١) د٠ جيهان رشتى : نفس المرجع ص ٢٤٢ ٠

الاقتصادية والتعليم العام المجاني والثورة الصناعية ، والاتصال الجماهيرى تشابكت جميعها في نسيج واحد لتحدث تغييرا عظيما في حياة البشر ومجتمعاتهم في قارات عدة · والآن يتحول الثقل مرة اخرى بفعل المستحدثات الالكترونية فى الاتصال نحو الاتصال الذى يستطيع المرء ان يرى فيه ويسمع الموصل ·

ولأن لوسائل الاتصال هذه القدرة الفائقة على التبليغ والاعلام · فاننا نستطيع أن نقول عن يقين أن في تصورها أن تؤدى خدمات جوهرية للغة التى تعكس بطبيعة الحال حضارة الانسان · فالحضارة كما يقول الدكتور احمد أبو زيد ، لا تنعكس فى شيء مثلما تنعكس فى الكلام ، واللغة بحيث يذهب بعض الكتاب الى القول بأن كل ما يظهر في لغة مجتمع من المجتمعات ، من نقص أو قصور هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع فى ركب الحضارة ، فالخبرة الانسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس فى اللغة وتجد تعبيرا لها فيها ، سواء اتخذ ذلك التعبير شكل الكلام العادي او الكفارة المعروفة أو الرسوم والنقوش التصويرية التى تركها الانسان المبكر على جدران الكهوف . أو حتى في الانجازات الفنية المختلفة من معمارية أو موسيقية او حركية كالرقص والتمثيل الصامت ، مادامت كلها مترجمة فى آخر الأمر الى الفاظ وتصورات ومفهومات ، ومادامت تعبر عن مشاعرنا وأفكارنا ، وتنقلها الى الآخرين فاللغة حتى في معناها الضيق الرقيق الذى يقتصر على الكلام · والكتابة عنصر أساسى فى حياة البشر ، اذ بدونها يصعب قيام الحياة الاجتماعية المتماسكة المتكاملة · وبالتالي يستحيل قيام الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من نظم اجتماعية وانماط ثقافية وقيم اخلاقية ومبادىء ومثل ، بل وحياة مادية ومخترعات ، لأنها هى اداة التفاهم والاعلام ، الذى هو أساس التعاون بين افراد الجماعة (١) ، فكثيرون ممن يعيشون فى مجتمع تقليدى يرون صفة سحرية في وسائل الاعلام الحديثة عند لقائهم بها لأول مرة ، وهم على حق فهى سحر كما قال افريقى حكيم « لولبور شرام » لأنها تستطيع أن تأخذ الانسان الى تل أعلى مما يمكن أن ترى عنى الأفق ثم تجعله ينظر فيما وراءه » · وهذا يعنى افتراض وجود علاقة قوية بين الاعلام واللغة والحضارة ·· ولقد درج الكتاب على الكلام عن لغة الحضارة وكيف أن حضارة معينة بالذات تجد لها تعبيرا واضحا ، وصادقا فى الفاظ ومصطلحات اللغة السائدة فى المجتمع الذى توجد فيه ، فمفردات اللغة والأساليب والتصورات وبناء الجملة ، والتراكيب اللغوية، والتشبيهات والاستعارات ، وما الى ذلك في المجتمع الصناعى الحديث الذى

---

(١) د· أحمد أبو زيد ، حضارة اللغة فى عالم الفكر ، الكويت ــ ابريل (١٧) ·

يتميز بتعقد نظمه الاجتماعية والاقتصادية ، وبشعور اعضائه بفرديتهم الذاتية تختلف اختلافا جذريا من مفردات اللغة وبنائها واساليبها فى المجتمع البدوى القبلى ، الذى يعيش على الرعى والترحال والذى يرتبط الفرد ارتباطا وثيقا بالجماعة القبلية التى ينتمى اليها بحيث تكاد شخصيته تفنى وتذوب تماما فى تلك الجماعة . ويذهب الدكتور ابو زيد (١) الى دراسة فكرة تتصل بموضوعنا من قريب وهى فكرة حضارة اللغة التى يشير الى انها مستعارة من عبارة عارضة ، وردت فى محاضرة للفيلسوف الرياضى الشهير الفرد نورث وايتهد ونشرها فى كتاب بعنوان انماط الفكر (٢) ويذهب الدكتور ابو زيد الى ان ثمة حضارة معينة هى حضارتنا الانسانية يرتبط وجودها ارتباطا قويا باللغة بحيث يمكن القول انه لولا وجود هذه اللغة لما قامت هذه الحضارة او لظهرت حضارة اخرى من نوع مختلف عن حضارتنا المعروفة ، فالجنس البشرى يمتاز على بقية الكائنات العضوية الحية ، بما فيها القردة العليا التى تعتبر اقرب هذه الكائنات العضوية الينا بالفكر واللغة ، وعلى الرغم من ان القردة العليا بالذات تعيش فى تجمعات يتميز بعضها بكبر الحجم ، وعلى الرغم من قدرتها على تعلم بعض الحركات ومحاكاة بعضها ، فانها تفتقر الى اللغة والى الحضارة بالمعنى الذى نفهمه من هاتين الكلمتين .

وتاسيسا على هذا الفهم فان دراسة البلاغة الجديدة تنظر الى اللغة اساسا على انها عامل من عوامل هذه الحضارة ، بل ان هذه الحضارة ، كما يذهب الى ذلك الدكتور ابو زيد ، لم تكن لتقوم اصلا لولا وجود اللغة التى تعتبر ايضا من اهم خصائص الانسان بل وعاملا فاصلا فى التمييز بينه وبين غيره من الكائنات ، فاللغة اداة هامة من ادوات الحضارة وعامل اساسى فى نشاتها واستمرارها وتطورها .

واذا كان الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافى لا يعنى شيئا اكثر من ان اللغة لها اساس ثقافى او حضارى ، كما يفعل علماء الانثروبولوجيا والاجتماع ، فان هناك الآن بعض العلماء يحاولون اثبات ان الشعوب التى تتكلم لغات مختلفة تعيش فى « عالم من الواقع » مختلفة ، وان اللغات التى يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة فى مدركاتهم الحسية وفى انماط تقليدهم ، وانها بذلك ، وحسب تعبير « سابير » تكون هى العامل الأساسى فى توجيه الحقيقة الاجتماعية او الواقع الاجتماعى Social Reality الذى يعيش فيه الناس الذين يتكلمون تلك اللغات ، فالناس لا يعيشون فى العالم

---

(١) نفس المرجع .

(٢) د. احمد أبو زيد : نفس المرجع .

الموضوعي الخارجي وحده ، كما أنهم لا يعيشون في عالم النشاط الاجتماعي فقط كما يظن الكثيرون من العلماء ، وانما هم خاضعون لرحمة اللغة التي يتخذونها أداة وواسطة للتعبير ، فعالم الواقع أو الحقيقة يرتكز الى حد كبير بطريقة لا شعورية على العادات اللغوية للجماعة ولا توجد لغتان متشابهتان تشابها كاملا بحيث تعتبران ممثلتين لنفس الحقيقة · أو الواقع الاجتماعي ، فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة اذن وليست عالما واحدا الصقت عليه أسماء وعناوين مختلفة (١) ·

وعلى ذلك ففي البلدان التي تعم فيها وسائل الاتصال لدى المرشح السياسي فرصة كبيرة ، ما لم يعرفه الناس عن طريق هذه الوسائل ، ومن دراسة عمليات السياسة دراسة دقيقة ، انتهى الرأي الى أن وسائل الاتصال لا تعبر تعبيرا مباشرا في قرار نسبة كبيرة من الناخبين عمن تمنحه صوتها ، ولكنها ذات تأثير كبير فيما يتحدث عنه الناس في أثناء الحملة من شتى الوسائل فهي بتركيزها الانتباه على مسائل معينة دون غيرها تستطيع أن تجعل لهذه المسائل دورا أكبر تؤديه في الحملات الاعلانية كذلك يهدف الكثير منها الى تركيز الانتباه على صنف معين أو سلعة ما · يصدق هذا بنوع خاص في الحالات التي لا يوجد فارق كبير فيها بين السلع المتنافسة اللهم الا في الاسم · في مثل هذه الحالات أثبت الاعلان قدرة الوسائل الاعلامية على تركيز انتباه الجميع على اسم معين دون أسماء أخرى ·

وهنا يتفق الاتجاهان : الاعلامي واللغوي الحديث ، بحيث يمكن أن يوضح اتجاه « بنيامين فورف » (١) ما يعنيه الاتجاه الاعلامي القائل بأن وسائل الاتصال الجماهيرية هي التي تحدد صورة البيئات في أذهاننا ، وانها لذلك تستطيع أن تركز الانتباه ، وهنا يقول « فورف » اننا نقوم بتقسيم الطبيعة حسب خطوط معينة رسمتها لنا لغاتنا · وهذه الفئات والأنماط التي نفصلها من عالم الظواهر لا يتم العثور عليها ، لأنها تواجهنا ، أو لأنها أمور واضحة أمام أعيننا، وانما الأمر على العكس من ذلك تماما ، بمعنى أن العالم الخارجي أو الواقعي هو مزيج من العناصر والعلاقات والظواهر المختلفة المتباينة الى أبعد حدود التباين ، وان العقول الانسانية هي التي تتدخل لتكشف عما فيه من تنظيم ، ووسيلتنا الى ذلك هي الأنساق اللغوية التي توجد في تلك العقول الانسانية ذاتها ، فنحن الذين نقوم بتقسيم الطبيعة وتجزئتها وتنظيمها في شكل مفهومات

---

1) Sapir, E. ; Language, Harcourt Brace, N.Y. 1921, pp. 21—3.

(٢) د· أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ذكره ص ٢٦ ·

(١) د· أبو زيد : مرجع سبق ذكره ص ٢٦ وما بعده ·

وتصورات ، ونعطيها بذلك أو أثناء ذلك معاني محددة تحديدا دقيقا ويعطينا « فورف » أمثلة عديدة تبين لنا بدقة كيف أن اللغة تتدخل لتقسيم الواقع الاجتماعي بعدة طرق وأساليب مختلفة ، ويظهر ذلك على وجه الخصوص حين نقارن نسقا معينا بالذات من الأنساق الاجتماعية لنرى الدور الذي تقوم به اللغة في تقسيم الطبيعة ، وكيف تنظر الجماعات التي تتكلم لغات مختلفة الى الشيء الواحد نظرات مختلفة وتتصوره أيضا بطرق وأساليب مختلفة (١) ٠

وقد ذهبت البحوث الحديثة الى أن لكل وسيلة من وسائل الاعلام خصائصها ومزاياها الفريدة ويقوم بعض هذه الخصائص على مجرد التأمل النظري ، بينما يقوم البعض الآخر على أساس تجريبي ومن ذلك (٢) :

١ ـ ان الوسائل المطبوعة تسمح بأن يتحكم القارىء في وقت قراءتها ، وفي فرص هذه القراءة ، كما تمكنه من اعادة الاطلاع على مضمونها وتسمح بالتأني في هذا الاطلاع الى حد كبير ٠

٢ ـ يصل الراديو الى الجمهور بطريقة مختلفة ـ غالبا ـ عن الطرق التي تصله بها الوسائل الأخرى ، وهو وسيلة تتميز بفقر في الثقافة اذا ما قورنت بالوسائل الأخرى ٠ ويقدم الراديو للمستمع درجة ما من المشاركة في الأحداث الفعلية المذاعة ، وذلك بحكم كونه أكثر اقترابا من الاتصال الشخصي أو اتصال الوجه للوجه ، ويتميز الراديو بقدرات عالية في الاقناع والتأثير لأنه عادة ما يكون الوسيلة الأولى في تقديم المواد للجمهور الا أنه ليس هناك من البحوث ما يدعم هذا الحديث عن الراديو أو يرفضه ٠

٣ ـ من المعتقد ان الشاشة تتمتع باقناع فريد ومميزات شعبية حيث انها تقدم المادة مرئية وبطريقة ملموسة غير مجردة ٠ ومن المعتقد ان هذه الأوضاع الملموسة بالاضافة الى عوامل أخرى تجعل الفيلم قادرا على السيطرة الوجدانية ، وبخاصة على الأطفال ، كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين ٠ فبينما ظهر من البحوث أن الأطفال يقبلون المواد المقدمة في الفيلم دون مناقشة ، نجد أن آثار السينما على الجماهير العادية مازالت بحاجة الى دراسة ومازال هناك تساؤل أيضا ـ حول الفعالية المتباينة لوسائل الاتصال الأخرى بالنسبة لهذا الجمهور ٠

---

(١) د٠ أحمد أبو زيد ص ٢٦ ،

Whorf, B.L.; «Science and Linguistics», The Technology Review, Vol. 42, 1940, p. 231.

(٢) د٠ محمود عودة : أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي ص ٨٧ ٠

٤ ـ ينظر الى الاتصال الشخصي او اتصـــال الوجه للوجه ـ عموما ـ بوصفه اكثر الادوات فعالية بالنسبة للناس ، وفيما يتعلق بعملية الاقتـــاع او التاثير لما يتميز به من قدرات ومرونة وعرض آني للجزاء والعقاب ، بالاضافة الى الخصائص الأخرى النابعة من العلاقة الشخصية المتضمنة في عمليـــة الاتصال الشخصي ٠

٥ ـ ان استخدام وسيلة من وسائل الاتصال الجمعي مدعمة ومعضـــدة بالاتصال الشخصي يحقق نجاحا باهرا ، وهو من أهم مميزات الحملات الناجحة وخصائصها ويعتقد بعض الباحثين أن هـــذه الطريقة تعتبـــر تدبيرا اتصاليا متفوقا من حيث التاثير والاقناع ٠

على أن هناك وجهة نظر اعلامية متممة يحددها شرام فيقوله ان الصورة التى لدينا عن البيئات البعيدة فى المجتمع العصرى تجيئنا فى معظمها عن طريق وسائل الاتصال بالجماهير ، ونتيجة ذلك أن حصة كبيرة من الآراء فيما يتعلق بالأشخاص وذوى الأهمية أو ذوى الخطورة ، وكذلك بالأشياء المهم منها وغير المهم تجىء بالضرورة عن طريق وسائل الاتصال ٠

فالصـــحيفة والراديو والمجلة ، هى كمـــا يقول شرام : : تقـــوم بدور « **الديدبان على التل** » ويتعين عليها أن تقرر ما تبلغ عنه عملية الاختيار هذه ؛ أى اختيار من تكتب عنه أو من تسلط عليه الكاميرا أو من تقتطف من أقواله أو من تسجل لهم من حوادث ، هذه العملية تتحكم بدرجة كبيرة فى وسائل الاعلام٠ ويقول الدكتور أبو زيد : أن طرائق وأساليب التفكير فى المجتمعـــات المختلفة تختلف من حيث أنواع الرموز التى يستخدمها النـــاس فى هـــذه المجتمعات ، وأنواع الأشياء التى يعتقدون باهميتها ، بالنسبة لهم ، وكذلك فى الطرق التى يمثلون بها لأنفسهم العالم الفيزيقى والاجتماعي والأخلاقي الذى يعيشون فيه من البديهيات الايستولوجية كما يقول « جون بيتى John Beattie ان الناس يرون ما يتوقعون رؤيته ، وان أنواع مدركاتهم تتحدد بدرجة كبيرة ان لم يكن كلية ـ بالنسبة الى الأوضاع الاجتماعية والثقافية التى يعيشون فيها ٠ على أن ذلك يؤكد أن اللغة لا تعرف التحجر ، وهى قادرة على العمل من خلال قدرة كامنة ، وهى لا تفتأ تتغير شكلا ومبنى ٠ تتغير حروفها واصواتها او صيغها وبناؤها ٠ أو من ناحية معناها ٠ فقد تنتقل الكلمة من معنى الى اخر وتضيف الى معناها معنى آخر جديدا دون أن تترك الأول ٠

---

(١) مرجع سبق ذكره ٠

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقوام التي تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران متلازمان وهما سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ولا سبيل لتفضيل لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائل المتبعة لتنمية اللغات واثراء تراثها التعبيري ·

فالامة البدائية حتما لغتها بدائية وغير مصقولة ، ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدى المعاني الحسية والمجردة · فهي لذلك تقتصر على التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة ، وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نموا تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير ، واعطاء كل سمة لفظا مناسبا (١) ·

ان اللغة تمنح الانسان بالاضافة الى وراثته « البيولوجية » خطا اخر للاستمرار يجعل الثقافة وتراكم المعركة امرا ممكنا ·

وقد اتاح العلم الحديث للغة ممكنات ووسائل متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية ، في صورها النظرية والتطبيقية · كما اتاح للالفاظ المعنوية انطلاقات جديدة مالت بها نحو وضوح اكثر وتخصيص ادق ، واصبحت الكلمات بفضل تقدم الاداب وفنون الاعلام والاتصال بالجماهير غنيـة بالمدلولات التي تعمقت اغوار النفس البشرية وحاجات الانسان ، حتى صار عدد من الفـاظ اللغة عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن ادق المعاني المجردة واعمقها (٢) ·

وكان من الطبيعي ان يشتد الاحساس بالحاجة الى لغة اعـلامية ذات بلاغة جديدة لتقوم بحاجات الوسائل الجماهيرية في الاتصال باعداد الناس الغفيرة ولتتناسب التنوع في هذه الوسائل الى وسائل مكانية ووسائل زمانية واخرى مكانية زمانية ·

وكنتيجة للسباق العلمي الرائع الذي يتجاوز الممكن الى المستحيل بقهر المعوقات الطبيعية في عالمنا ، بحيث اصبح في الامكان ارسال التقارير الاعلامية وبثها عبر الفضاء واستقبالها بواسطة اجهزة الاذاعة المرئية والمسموعة ، كما اصبح في مقدور الاقمار الصناعية ان تستخدم في ارسال البرامج التليفزيونية وغيرها ·

---

(١) مجلة اللسان العربي : العدد السادس ص ١٩ ــ المغرب ١٣٨٨ هـ ·

(٢) مجلة اللسان العربي : العدد الأول ص ٢٨ ــ ١٣٨٦ هـ ·

وترتبط هذه اللغة فى بلاغتها الجديدة ارتباطا مباشرا بمفهوم الوسائل الجماهيرية مقروءة ومسموعة ومرئية وبوظائف هذه الوسائل من اعلام وتثقيف واقناع وترويج ومشاركة ذهنية وقلبية ، كما ترتبط بنظرية التحرير الجماهيرى حيث أصبح من المتعذر نقل المعلومات عن طريق الاتصال الشخصى المباشر كما كانت الحال فى عهود سابقة من تاريخ الانسانية ، وأصبح الاتصال الجماعى أمرا حكميا لتدفق المعلومات الى جماهير الناس الغفيرة ٠

ومن الطبيعى أن تختلف اللغة فى سياقها الجماهيرى الجديد عن لغة الاتصال المباشر ، اختلاف البلاغة الجديدة عن البلاغة القديمة التى تتطلب بنية وخصائص تختلف عن ذى قبل ٠ فالخطيب الذى كان فى مقدوره تلقى ردود افعال جمهوره المحدود ، ومواجهة هذه الأرجاع بمنهج بلاغى مقنع ، لم يعد فى امكانه ـ فى الوسائل الجماهيرية أن يتعرف مباشرة على جمهوره ، الأمر الذى يحتم على لغته أن تبنى صلة جديدة افتقدت بينه وبين جمهوره ، بمحاولة التعرف على مستويات جمهور المستقبلين ، ومواجهة هذه المستويات المختلفة بلغة مفهومة مقنعة يتوفر فيها عنصر المشاركة والتشابه فى الخبرات بينه كمرسل وبين جمهوره كمستقبل ٠

وتتطلب هذه البلاغة الجديدة من خلال الاتصال الجماهيرى بذل جهود تهدف الى تحقيق أمرين :

اولا : معرفة الهدف من الاتصال ٠

ثانيا : كيفية استعمال اللغة فى بناء الرسالة لتحقيق المشاركة والفهم ٠

وتأسيسا على هذا الفهم فان اللغة فى نظرية الاعلام ليست عنصرا منفصلا أو منعزلا عن بقية العناصر الأخرى ، فهى ترتبط بالمضمون ارتباطا وثيقا ، لأن رسالة بلا مضمون ٠٠ هى رسالة عاجزة عن الوصول الى الناس٠

كما أن التعرف على جميع الاحتمالات الذهنية والظروف الطبيعية لكل مستقبل على حدة ، رغم صعوبتها أمر أساسى يقتضى محاولة الوصول الى الكمال فى تطوير الأسس الفنية لاستخدامات اللغة ، حتى يتسنى للرسالة الاعلامية تحقيق التأثير المنشود ٠

ويرتكز هذا التطوير على دراسة علم الاتصال الجماهيرى وخصائص

وسائله جميعا (١) انطــلاقا من الأسس التقليــدية لفنون التحرير الصــحفي والكتابة للأجهزة الجديدة كالاذاعة والتليفزيون والسينما ٠

وعلى ذلك فان بناء الرسالة الاعلامية لغويا ينبغي أن ينشأ عن المقتضيات الأسلوبية والبلاغية لكل وسيلة من وسائل الاعلام والاتصال بالجماهير ، ووفق الخبرات والمفــاهيم المشتركة بين المرسل والمســتقبل والتغلب على الحواجز والقيود والمعوقات التي تحول دون ذلك ٠

ولقد أدرك « جون ديوى » أهمية **الوسيلة** في الابداع الفني والاحســاس الجمالي ، فاللوحات مثلا ــ حينما ينظر اليها على أنها مجرد وسائل توضيحية لبعض المشاهد التاريخية ، أو لأى انتاج أدبي أو لبعض المناظر المألوفة فانهــا عندئذ لا تدرك بالاستناد الى وسائلها الخاصة وحينما ينظر اليهــا بالاقتصار على الرجوع الى الصنعة أو التكنيك المستخدم في صناعتها أو تكوينها ، فانها عندئذ لا تدرك ادراكا جماليا ، وذلك لأن الوسائل أيضا انما هي منفصلة عن الغايات ، وبالتالي فان تحليل الوسائل قد حل محل الاستمتاع بالغايات (٢) ٠ والوسيلة في صميمها « وسيط » فهي تتوسط بين المرسل والمستقبل (المتذوق أو المدرك) ٠

فعندما يأخذ الفنان المرسل على عاتقه عملية الخلق لا يكون العمل من خليط من المناظر والأصوات مأخوذا اعتباطا بل ان أحجار بناء العمل تكون قد نظمت بالفعل في نمط ثابت هو الوسيط الفني (٣) أو وسيلة الاعلام ٠

وعلى ذلك فان « **الرسالة** » الاعلامية تتألف من العناصر الحسية التي قد تكون بصرية أو ســمعية والتي اختيرت من « **الوسيلة** » ويتميــز « **المرسل** » بحساسيته لوسيط معين (٤) فلديه وعى زائد بطبائع الأصوات أو الألوان أو الألفاظ ٠ ونظرا الى أن المادة الاعلامية ليست جامــدة بل هي نابضة حيــة وظيفية ٠ فانها تعمل على توجيه مجرى النشاط الاعلامي ٠ انك لا تستطيع أن

---

(١) انظر الدكتور ابراهيم امام : العلاقات العامة والمجتمع ص ٩٩ وما بعدها في دراسته القيمة لخصائص الوسائل المكانية والزمانية والمكانيةالزمانية ومميزات كل منها ٠

(٢) جون ديوى : (ترجمة د٠ زكريا ابراهيم) الفن خبرة ص ٣٣٦ ٠

(٣) جيروم ستولنتيز : (ترجمة د٠ فؤاد د٠ زكريا) النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية ص ٣٢٦ ــ ص ٣٢٨ ٠

(٤) نفس المرجع ٠

تصنع من الفخار نفس ما يمكنك أن تصنعه من الحديد الخام الا اذا كان ذلك غصبا وافتعالا · فالاحساس الذى يبعثه العمل يكون مختلفا كل الاختلاف ، ذلك لأن المعدن يتحداك ويستحثك ·· على أن تصنع منه شيئا معينا ، حيثما احسست بتماسكه ومرونته (١) وكذلك الحال فى تعامل اللغة مع الأجناس الاعلامية سواء كانت مكانية او زمانية او مكانية زمانية ، ويقصد بالأجناس المكانية تلك التى تشغل حيزا فى مكان كالمطبوعات والصور ، والفنون التشكيلية ، وهى جميعا وسائل بصرية أو منظورة ، أما الأجناس الزمانيةفهى التى تتسلسل فى وقت زمنى كالاذاعة والتليفزيون والأحاديث المسموعة ، وهى وسائل شفوية أو سمعية وتعتبر الأفلام الناطقة والتليفزيونية والمحادثات الشخصية المباشرة أجناسا مكانية زمانية لأنها تشغل حيزا مكانيا ووقتا زمانيا فى نفس الوقت وهى وسائل بصرية وسمعية ·

ويتفق هذا التصنيف للأجناس الاعلامية مع تصنيف الفنون بالاستناد الى أعضاء الحس وقد تعرض بعض الباحثين المحدثين للجهد الذى قام به « كانت » فى سبيل قصر مادة الفنون على الحاستين العاقلتين الراقيتين الا وهما العين والأذن · ولكن حسبنا أن نقول مع « ديوى » (٢) « انه مهما كان من اتساع نطاق بعض الحواس ، فان من الحق مع ذلك ان أى حس جزئى انما هو مجرد نقطة امامية أو مركز طليعة لنشاط عضوى شامل ، تشترك فيه كل الأعضاء بما فيها وظائف الجهاز العصبى المستقل (أو السمبتاوى) ، حقا أن العين والأذن واللمس قد تأخذ مركز الصدارة فى مهمة عضوية خاصة ولكنها ليست دائما العامل الأوحد أو الأهم ، اللهم اذا كان الحارس جيشا بأسره »·

وتقسيم الأجناس الاعلامية الى أجناس زمانية وأخرى مكانية تقسيم يجىء بعد حدوث العمل الاعلامى فضلا عن أنه خارجى صرف ، فهو لا يلقى أى ضوء على المضمون الجمالى لأى عمل فنى (٣) وكذلك (المضمون الاعلامى) وهكذا يقوم هذا التقسيم على أساس اعتبار سمات الآثار الاعلامية كائنات مادية خارجية ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ برنارد بوزانكيت : ثلاث محاضرات فى علم الجمال ، ص ٦٩ ـ ٦٠ ·

(٣،٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٧ ·

الباب الثالث

البلاغة فى نظرية الاعلام



البلاغة فى نظرية الاعلام

يقول الفيلسوف الانجليزى « هوبز » Hobbes : مثل الكلمات بالنسبة للعقلاء كمثل محل دفع النقود فانهم لا يفعلون أكثر من تقديرها وعدها ـ ولكنها بالنسبة للبلهاء النقود نفسها » ·

ذلك أن اللغة نسق من الاشارات موجود فى أى مجتمع ومن أجل هـذا المجتمع فهى من أهم وسائل الاتصال والتفـاهم بين الأفراد والجماعات وهى ظاهرة متشعبة النواحى « أثارت الوانا شتى من البحث والدراسة واذا تركنا جانبا ما يتصل بها من دراسات ادبية ونحوية وصرفية فانها وجهت الى بحوث أخرى متعددة فعرضها علمـاء وظائف الأعضـاء ليعرفوا كيف تؤدى وبينوا أعضاء النطق والصوت ورسموا فى اختصار الجهاز العضوى للغة وعالجهـا علماء النفس لما رأوا من صلة وثيقة بين العمل الذهنى والدلالات اللغوية وعنى بها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها ، ومقارنين بين اللغـات البدائية واللغات المتحضرة ومعلنين أن اللغـة ظاهرة اجتماعية تخضع لمـا تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات ونظر الى اللغة أخيرا على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضى ويحكى الأحداث بل هى نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها وبحث معالمها » (١) ·

واذا كان مفهوم البلاغة قد ظل زمنا طويلا مفهوما غير محدد فان نظرية ظهرت فى الأعوام الأخيرة تسمح لنا بأن نقوم موضوعيا كمية المعلومات التى تتضمنها أى رسالة سـواء كانت الرسالة مذكرة عن موضوع ما أو قصـيدة للعقاد أو حديثا هاتفيا أو مقطوعة موسيقية لعبد الوهاب ··· الخ · وتسمى هذه النظرية باسم نظرية الاعلام التى انبثقت من مشكلات عملية خالصة فوضع العالم الأمريكى « كلود شانون » فى عام ١٩٤٨ (٢) أساس نظرية الاحتمـالات فى الاعلام وبعده بدأ عديد من الباحثين تطبيقها فى مجالات واسعة من العلوم كالأحياء واللغة والفلسفة والوراثة والفنون والرياضيات وعلم النفس ·· الخ ·

---

(١) د· ابراهيم بيومى مدكور : فى اللغـة والأدب سلسلة اقرأ ـ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ ·

(٢) ١· كندراتوف : (ترجمة شوقى جـلال) الأصـوات والاشـارات ، القاهرة ١٩٧١ ·

ذلك انه لم يسبق من قبل ان استطاعت الكلمة المنطوقة او المكتوبة فى تاريخها الطويل ان تبلغ كل هذه الأعداد البشرية التى تقرؤها او تسمعها فى وقت واحد . أن عصرنا وهو عصر الثورة العلمية والتكنولوجية هو كذلك عصر الوسائل الجماهيرية الحديثة . لقد بلغ التواصل بين الناس اقصى مداه واضخم ابعاده فقراء الصحف والكتب والمجلات يتزايد عددهم كل يوم واجهزة الاذاعة والبث (أو الاذاعة والتليفزيون) تدخل الكلمة المنطوقة فى كل بيت وتؤثر فى نفس الوقت على تفكير مئات الالوف من الناس بل ملايينهم كما تؤثر على شعورهم وارادتهم وسلوكهم ومديرو الاعلانات فى الشركات العالمية الكبرى ويستغلون الكلمة فى الترويج ويلجأون الى كل الوسائل اللغوية الممكنة لاقناع القراء او المستمعين بالاقبال على شرائها والسياسيون فى مختلف انحاء العالم يتنبهون يوما بعد يوم الى قوة تأثير الكلمة وسلطانها على النفوس (١) .

وتأسيسا على هذا الفهم تنظر البلاغة فى نظرية الاعلام الى اللغة على اعتبار انها نظام من العلامات الصوتية وينشأ ويتطور مرتبطا بتاريخ الناطقين بهذه اللغة ويستخدم وسيلة للتواصل ووسطا للتفكير ومجالا للتعبير عن الافكار والعواطف والمشاعر والمقصود باستخدام اللغة فى التواصل هو « عملية تبادل المعلومات بين الافراد والجماعات ويظهر هذا التواصل اللغوى على شكل عبارات او تعبيرات شفهية أو كتابية تتبادلها الأطراف فى موقف معين لغرض معين عن واقعة معينة (٢) .

وفى البداية يحتاج الاصطلاحان : « اتصال واتصالات » الى ايضاح .. فالاتصال ببساطة هو عملية الاتصال فكلمة اتصال Communication تمتاز بالتعبير عن الغرضية والتفاعل معا بمعنى انها تنطوى على معنى القصد أو التدبير وكذلك تعنى التفاعل أو المشاركة فاللفظ الأوروبى مشتق من الأصل اللاتينى للفعل Communicare بمعنى : يذيع أو يشيع عن طريق المشاركة التى قد تكون بين شخص وآخر فى الاتصال الشخصى أو بين شخص وجماعة فى الاتصال الجمعى المباشر او بين مؤسسة وعدة جماعات متفرقة لا ترى مصدر الاتصال فى الاتصال الجماهيرى (٣) .

---

(١) د. جنتر هينزه (تقديم د. عبد الغفار مكاوى) سلطان الكلمة فى مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة يونيو ١٩٧٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢ .

(٣) د. ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٤ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

وتؤكد دائرة المعارف البريطانية على خاصية التفاعل التي تميز الاعلام من غيره من حيث النتائج والآثار وردود الأفعال التي يمكن تقديرها فهي (عملية الاتصال تهدف الى احداث تجاوب مع المستقبل وبعبارة اخرى تحاول أن تشاركه في استيعاب المعلومات أو في نقل فكرة واتجاه) ٠

ولعلنا لا نتجاوز الاطار العلمي حين نذهب الى أن المفهوم العربي لكلمة « بلاغة » يقترب من هذا المفهوم الحديث فالبلاغة لغة تنبيء عن « الوصول والانتهاء » على نحو ما ذهبنا اليه فيما تقدم ٠

عملية الاتصال بالجماهير :

ويعد نموذج شرام Schramm من أشهر النماذج التي تصور البلاغة في عملية الاتصال بالجماهير وتحللها الى عناصرها وتبين المواقف المتصلة بها وهناك خمسة عناصر اساسية في عملية الاتصال هي المصدر المباشر أو المرسل والعنصر الثاني هو صياغة الفكرة في رموز معينة encoding والعنصر الثالث تفسير هذه الرموز وفهمها وعلى هذا الأساس يأتي العنصر الرابع وهو استجابة المستقبل أما العنصر الخامس فهو يتمثل في الردود أو الأصداء الراجعة من المستقبل الى المرسل والذي يستطيع عن طريقها أن يكيف عملية الاتصال ويعد لها كما يفعل الترموستات لضبط درجات الحرارة وجعلها متمشية دائما مع الدرجة المطلوبة ٠

فالمرسل على حد تعبير « شرام » يحاول توصيل معلوماته ومشاعره في كلمات مسموعة أو مكتوبة وفي الاعلام الاسلامي كان يقال : « رسول الرجل مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله » وكذلك جعل الله عز وجل ـ رسله افضل خلقه وأخبر أنه اصطفاهم على العالمين فقال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (سورة الأنعام : ١٢٤) ٠

وفي ذلك يقول ابن وهب (١) : وانما وجب أن يختار العاقل رسوله لأنه قد أقامه فيما يؤديه عنه مقامه فعليه أن يجعله أفضل من بحضرته وعلى الرسول أن يؤدي ما حمل كما قال عز وجل : « فانما عليه ما حمل » (النور : ٥٤) وكما

---

(١) ابن وهب (تحقيق : د٠ أحمد مطلوب و د٠ خديجة الحديثي) البرهان في وجه البيان ص ٢١٨ ، بغداد ١٩٦٧ ٠

قال : فهل على الرسل الا البلاغ المبين (النحل : ٣٥) وانما وجب عليه البلاغ لأن الرسالة امانة فعليه تأديتها لأن الله عز وجل يقول ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها (النساء : ٥٨) وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ولا أن ينتقص منها لأن ذلك خيانة أمانة الا أن يكون المرسل فوض اليه أن يتكلم عنه بما يرى فقد قال الشاعر (من المتقارب) :

اذا كنت فى حاجة مرسلا   فارسل حكيما ولا توصه

وانما أمر بذلك لأن الحكيم اذا وصيته لم يتجاوز وصيتك وان كان الرأى عنده خلافها فربما ضرك بترك الأصوب عنده واتباع أمرك ولا لوم عليه فى ذلك واذا فوضت اليه عمل بحكمته ورأيه وقد روى فى هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه بأمير المؤمنين (على بن أبى طالب فى بعض أموره فقال له : « أكون يا رسول الله فى الأمر اذا وجهتنى اليه كالسكينة المحماة اذا وضعت للموسم أو يرى الشاهد وما لا يرى الغائب » فقال : (بل يرى الشاهد ما لا يرى الغائب » ففوض اليه لما وثق برأيه وقال لغيره من الناس : نصر الله امرؤا سمع مقالتى فاداها ولم يفرض اليهم لقلة ثقته بهم » ٠

ومن ذلك يتضح أن القائم بالاتصال لا يقل أهمية عن مضمون الرسالة ولذلك عنيت الدراسات الاعلامية بدراسة هذا العنصر الاتصالى ونذكر منها دراسة « كرت لوين » عالم النفس النمساوى الأصل الأمريكى الجنسية والتى أسفرت عن تطوير نظرية « الحاجب الاعلامى The gatekeeper والتى تذهب الى أنه على طول الرحلة التى تقطعها المادة الاعلامية حتى تصل الى الجمهور توجد نقاط أو « بوابات » يتم فيها اتخاذ قرارات بما يدخل وما يخرج ولذلك عنيت دراسات الحاجب الاعلامى « بسلوك القائمين بالاتصال دراسة تجريبية ومنتظمة تتناول تأثير الظروف المحيطة بهم وتأثير النواحى المهنية عليهم والجوانب المادية والفنية لعملهم ٠

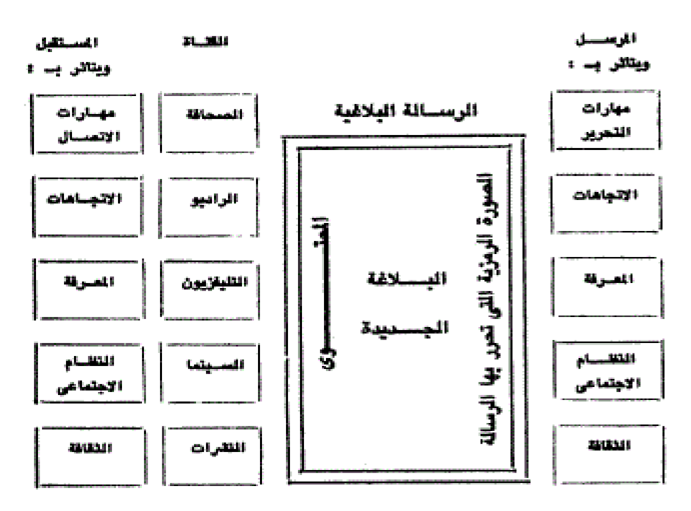
ويتوقف نجاح البلاغة فى عملية الاتصال على اختيار المحتوى المناسب للرسالة موضوع الاتصال ، وكذلك على اختيار القناة والوسيلة المناسبة لنقلها ، والواقع أن قيمة أية رسالة تتوقف على مدى فعالية هذه الرسالة وتأثيرها ٠ ولا يمكن التأكد من ذلك الا اذا عرفنا أثر الرسالة على الشخص المستقبل لها ٠

وقد ركز عالم السياسة « هارولد لازويل » هذه العملية فى الاجابة على الاسئلة التالية :

« من ــ يقول ماذا ــ بأى وسيلة ــ لمن ــ وبأى تأثير »

وحين نتفق على أن البلاغة في عملية الاتصال ليست الا عملية ترامز ، حيث يوجد دائما مصدر يرسل الرموز بوسيلة من الوسائل ليستقبلها آخر فيحل رموزها ويفسرها – يصبح في امكاننا الاتفاق على مكان – اللغة من عملية الاتصال . ذلك ان اللغة هي العامل المشترك الاعظم بين كل عناصر العملية من مرسل ومستقبل ورسالة اتصال ، وغني عن البيان ان هذه العناصر جميعا « حلقات متصلة متكاملة » .

لا بد للمرسل ان يضع رسالته في شكل معين أو صيغة محددة من الرموز أو الكلمات ، ومن الطبيعي أن تحتاج هذه الكلمات الى أجهزة نقل أو وسائل اعلام – كالصحف والاذاعة والتليفزيون وغيرها لكي تنتشر بسرعة في أماكن عديدة ، بحيث يمكن أن نتصور موقع « البلاغة » في عملية الاتصال بالجماهير على النحو الذي يتضح من النموذج التالي :



ففي البلاغة الجديدة تصبح طبيعة « الرسالة » التي يهدف « المرسل » الى توصيلها الى المستقبل ، هي محور الدراسة البلاغية ، ولذلك تعنى هذه

الدراسة بطبيعة الرسالة من حيث الأغراض والوظائف والاستعمالات المختلفة للغة • ويمكن القول أن اللغة ـ أو البلاغة بوجه عام ـ تؤدى ثلاث وظائف هى :

١ ـ الوظيفة الاعلامية : من حيث ان الغرض البلاغى هو توصيل المعلومات وابلاغ الحقائق ، كما يحدث فى الاتصال الاعلامى بوسائله المختلفة •

٢ ـ الوظيفة التعبيرية : ذلك أن البلاغة قد تتخذ طابعا تعبيريا فى الفن والأدب بوجه عام بهدف « التعبير عن المشاعر » أو « التحريك » لمشاعر أو اتجاهات الشخص المتلقى •

٣ ـ الوظيفة الاقناعية : حين يستهدف الاتصال اقناع المتلقى أو جمهور المستقبلين بفلسفة محددة ، أو رأى معين أو وجهة نظر ما ، أو دفعه لعمل شىء ما ، وهو ما يحدث فى الاتصال الاقناعى بوجه عام •

واذا كان هذا التقسيم لأهداف البلاغة الجديدة يلقى بعض المعارضة سيما من جانب علماء النفس اذ يرون أن فصل هذه الأهداف عن بعضها البعض لا يتحقق فى الواقع العملى ، فالاتصال البلاغى الذى يهدف الى توصيل قدر من المعلومات والخبرات لا يمكن ان يحقق اهدافه ما لم تصحبه بعض الجوانب الاقناعية •

وعلى ذلك فان الفهم الدقيق لتصنيف اهداف البلاغة يرتكز على أساس أن الكلمة المكتوبة والمنطوقة تحقق هذه الأهداف على نسق لا تنفصل فيه عن بعضها البعض بحيث تغدو فئات مستقلة ، وانما تتداخل جميعا بحيث يشمل الهدف منها أجزاء من الهدفين الآخرين •

على أن التمييز بين هذه الوظائف الثلاث انما نلجأ اليه فى الدراسة الوظيفية ، وليس الأمر كذلك فى مضمون الاتصال ولغته المستعملة •

فالكلمة المنطوقة أو المكتوبة تغدو اعلامية من حيث الدراسة الوظيفية اذا كان الهدف السائد فيها يضيف الى الجمهور معرفة مبسطة حول الموضوع؛ واذا كان المضمون والشكل مرتبطين بالهدف نفسه •

اما الهدف التعبيرى للاتصال فهو يظهر فى النموذج المتقدم على نحو واضح يتداخل فيه مع الهدفين الاعلامى والاقناعى ، ليحقق المشاركة وجذب الاهتمام الانسانى واثارة الخيال لدى الجمهور •

بينما يتضح من النموذج كذلك أن الهدف الاقناعي للاتصال ؛ قد يتضمن كلا من الهدفين الاعلامي والتعبيري ؛ لكنه يستخدمهما لاقناع الجمهور بوجهة نظر محددة ، ذلك أن المضمون في الغالب قد يكون مشكلة غير محلولة يذهب فيها مذهبا معينا بهدف علاجها ، وهو لذلك يسعى الى اقناع الجمهور بوجهة نظر الكاتب حول مشكلة المضمون المطروح ·

ومن ذلك يتبين أن أهداف الاتصال متداخل بعضها في بعض ، وانما يميز الهدف عن الأهداف الأخرى بسيادته المحورية لمضمون ولغة الاتصال ولا يمكن أن تنظر اليها كذرات منفصلة لا رابط بينها ·

فمثلا لا يمكن أن يوصل المعلم قدرا مناسبا من المعلومات الى الطالب ما لم يقنعه بقيمة المادة التى يدرسها أو المعلومات التى تقدم اليه ، كما أن الاتصال الذى يهدف الترويح عادة ما يتضمن بعض جوانب المعرفة وجوانب الاقناع · فالفرد عندما يشاهد فيلما معينا قد يكون الهدف الظاهر هو الترويح ولكن هذا الترويح عادة ما يكون مقترنا بالاقناع وقد يضيف المشاهد الى معلوماته الشيء الكثير عن طريق مشاهدته لهذا الفيلم ، فالاتصال فى هذه الحالة قد حقق أهدافه الثلاثة فى وقت واحد ·

وأيا كان أمر الهدف من عملية الاتصال فاننا لكى نصل الى اتصال فعال لابد أن تحدد بوضوح هذا الهدف ، وأن يكون واضحا فى الأذهان نوع ومدى الاستجابة Response التى نأمل الحصول عليها من وراء عملية الاتصال · سيما أن أهم نقد لهذا التقسيم هو النقد الموجه لطبيعة اللغة ؛ فهناك من الأسباب ما يجعلنا نذهب الى أن أى استخدام للغة يتضمن جانبا اقناعيا ، ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يتكلم دون أن يحاول اقناع المتلقى بطريقة أو بأخرى ، ولكننا نذهب مع « روبى » (١) الى أن أكثر الأشكال التى ترمز الى عوائق الاتصال هو معاملة كل استعمال للغة ، كما لو كان يقصد به الى الاعلام أو البلاغ ، فمثلا كثير من الناس يقرأون القصيدة الشعرية كما لو كانت رسالة علمية ولكن معايير الحق والباطل غير متعلقة بالهدف الذى يرمى اليه الشاعر بالقياس الى عبارته الحقيقية · فقد حاول الشاعر استحضار حالة شعورية معينة أو التعبير عن احساس (٢) · وعندما وصف الشاعر م · ع الهمشرى أنوار النارنج اذا ما تفتحت فى بياض الثلج متحدثا عن الزرزور :

(١،٢) ليونيل روبى (ترجمة د· محمد على العريان) : فن الاقناع ص ٨٥ وما بعدها ·

« فمتى يؤوب هتافه ؟ ومتى أرى
نوارك الثــــلجى يا نارنجتى

ومتى أطير اليك ترقص مهجتى
فرحا واخــذ مجلسى من شرفتى »

فان الهمشرى لم يكن يقصد حقا ان النوار ثلجى ، لأن لغته هنا لغة تأثر انفعالى وليست لغة علمية فيهدفها . على أن الشعراء كما يقول « روبى » (١) أيضا لا ينفردون وحدهم باستعمال اللغة بهذه الطريقة . فثمة كتاب أو رسالة علمية يقصد بها البلاغ والاعلام عينا ، ولكنها تكون فى نفس الوقت تعبيرا عن الانفعال كما تكون تعبيرا عن الفكرة فى الوقت نفسه ، وقد تغلب عليها الصبغة الانفعالية والطابع العاطفى .

وعلى ذلك فاننا لن نستطيع أن نفهم حقيقة اللغة عندما نعتبرها مجــرد وسيلة للتفاهم ونقل الأفكار ، اذ أن هذا الاعتبار ــ كما يقول «أوتوجسبرسن» ــ ليس الا تقريرا لجانب واحد من جوانب اللغة الانسانية : « ولا شك أنه من ضيق النظر أن ندخل فى حسباننا عاملا واحدا ، وأن نغفل بقية العوامل فى فهم حقيقة من الحقائق ، ولقد كان هذا مع الأسف عيبا سائدا فى انتــاج كثير من اللغويين » .

فلقد قال « هرمان بول » فى خطاب له فى « ميونيخ سنة ١٩١٠ عن وظيفة اللغة أن الوظيفة الأساسية للغة أنتكون أولا وقبل كل شىء وسيلة لنقل العواطف والمعلومات أو سواهما من الأمور » .

ويذهب جسبرسن Jespersen الى أن ذلك ليس فقط وظيفــة اللغــة فى الأصل ، أو فى العصر الذى نعيش فيه : « فاللغة كانت على وجه العمــوم أمرا وسطا بين الغناء والكلام أو بين مجرد التنغيم الصوتى الذى لا يقصد من وراء كلماته ومقاطعه غير الجرس والموسيقى ، وهما ان صح أن لهما جانبــا تعبيريا فلن يكون غير تعبير عام عن حالة شعورية تدفع لاصدار الكلام ، كما يقول جسبرسن أمر وسط بين هذا النوع من التنغيم وبين كونها وسيلة لنقــل الأفكار والمعلومات بين فرد وآخر . » ولو صح أن هذا هو الوضع المبكر للغة

---

(١) نفس المرجع .

Sapir, E. ; Language, Harcourt Brace. N.Y. 1921 P. 23.

و د. أحمد أبو زيد فى مجلة عالم الفكر ، الكويت ٢٢ ع ١ مايو ١٩٧١ .

فليس هنالك ما يمنع أن تكون اللغة البشرية قد تطورت في العصور اللاحقة تطورا جعل منها وسيلة دقيقة للتفاهم ونقل الأفكار » ٠

وأيا كان الأمر فان الفهم الحق للغة يكمن في وظيفتها الاتصالية التى تكاد جميع الآراء أن تجمع عليها ، فيذهب بعضها الى أن اللغة مرآة تعكس الفكر أو أنها وسيلة للتعبير عن الأفكار وتوصيلها أو تبادلها ٠ ويعرف « هنرى سويت » اللغة فى كتاب « مدخل تاريخ اللغة » بأنها « التعبير عن الفكر عن طريق الأصوات اللغوية » كما يعرفها العالم الأمريكى « سابير » فى كتابه « اللغة » (١) بأنها وسيلة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام رموز يستخدمها الفرد باختياره وقد حدد « جيفونز » أغراض اللغة فى أمور ثلاثة :

أولا : كونها وسيلة للتفاهم ٠ وكونها

ثانيا : أداة صناعية تساعد على التفكير وكونها

ثالثا : أداة لتسجيل الأفكار والرجوع اليها ٠

وعلى الرغم من ارتباط الفكر واللغة معا بقوة ، واعتبار اللغة أهم وسيلة يمكن بها التعبير بدقة وبطريقة منهجية مطردة عن الفكرة ٠ وعلى الرغم من أنه بدون اللغة سيكون من الصعب الاحتفاظ بالفكر واستعادته ونقله للآخرين (١) فان هذا لا يصدق على ما يقول « وايتهيد A.N. Whithead فى كتابه Modes of thought أن اللغة هى جوهر الفكر وماهيته ، فكثيرا ما تقصر اللغة عن التعبير عن الأفكار من ناحية ، وعن العواطف والانفعالات من الناحية الأخرى ، ومن هنا لم تكن اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة أو لغة الكلام هى اللغة الوحيدة التى يعرفها الانسان ، وانما هناك الى جانبها لغات « أخرى غير كلامية تستخدم هى أيضا للتعبير والتوصيل » ٠ ومع التسليم بأن الألفاظ والكلمات تستطيع أن تبلور التفكير وأن تضفى على الصور الذهنية المجردة (التى كثيرا ما تكون باهتة ومبهمة وغامضة) كثيرا من الدقة والوضوح والتحديد ؟ فان هذا لا يعنى استحالة التفكير بغير اللغة الكلامية ٠ فثمة موضوعات كثيرة يمكن معالجتها بدون استخدام الكلمات والألفاظ كما هو الحال حين يفكر المرء مثلا فى حل مشكلة رياضية معقدة ٠ ومن الواضح أن ما نسميه بالتفكير الكلامى أو التفكير عن طريق الألفاظ لا يلعب الا دورا ثانويا عند علماء الرياضيات على الأقل فى المرحلة الحاسمة من عملية الابداع (٢)٠

(١،٢) د٠ أحمد أبو زيد ، نفس المرجع ص ٨ ٠

البلاغة ولغة الاتصـــال :

ومادامت اللغة هى الرابطة الكبرى بين البلاغة والمجتمع ، فينبغى أن تنظر اليها نظرا علميا صحيحا فاللغة ليست مجمـوعة القواعد التي تحصلها وتسميها بالنحو المتواضع عليه ، وهى لا يمكن أن تكون وسيلة « افادة » فحسب بل لا يمكن أن تخضع لقواعد المنطق الصورى أو المنطق الأرسططاليسى الـذى قسم الكلام الى مخارج محددة جعلها أسماء وأفعالا وأدوات · واللغة ليست هذا كله ، ذلك لأنها بمفهومها الاجتماعى سلوك فردى وجماعى ، وهى عندما ينظر اليها فى الطفل الذى لما يبن عن نفسه بالمخارج أو الانبعاثات الصوتية ، نرى انه لا يريد أن ينبه غيره اليه فقط ولكنه ينزع فى الواقع نزوعا سلوكيا ·· واللغة في الجماعات البدائية نزوع سلوكى كذلك ، وهى تنتظم الحركة الموقعة والاشارة ، كما تنتظم تغيرات تقوم على الاستجابة المنعكسة لوقع الحيـاة على نفوس الناس ، وقد تكون اللغة حركات أخرى كالنقـــر والتلوين والصياغة ، واستغلال الضوء والصوت · وهكذا نرى أن اللغة تنتظم هذه الظواهر كلهـا بمفهومها الاجتماعى فهى سلوك وليست مجرد افادة عقلية أو مجرد انبعـاث صوتى منتظم ·

الوظائف البلاغية ومستويات التعبير :

وتأسيسا على الفهم الوظيفى للاتصال ؛ فان هناك ثلاثة مستويات للتعبير البلاغى :

أولها ــ المستوى التعبيرى : وهو تذوقى فنى جمالى يستعمل فى الأدب والفن ·

والثانى ــ هو المستوى الاقناعى : ويستعمل فى الدعاية والعلاقات العامة وما الى ذلك ·

والثالث ــ هو المستوى الاعلامى : وهى مستوى عملى اجتماعى عادى يستخدم فى وسائل الاعلام ·

والمستوى التعبيرى ، نجده أوضـــح ما يكون فى لغة الشعراء كما هــو الحال فى هذه الأبيات للشاعر محمود حسن اسماعيل :

فقلت لثارى اذن الفجر فارتمى
وشدى على الأصفاد شد المقاتل

وما مر عمر الطيف حتي ترنحت
وذابت قيودى من عميق المفاصل

فكبرت جـل الله عادت حقيقتي
ورنت اناشيدي ، وغنت بلابلى

هذه الأبيات تعبر عما يعتمل فى صدر الشاعر من تحـــاور بين الموت والحرية ضد الرق الانساني · وربما شعر المتلقى بنفس شعور الشاعر بالفعل الروحى التلقائى المنبعث من أعماق ذاته ·

اما المستوى الاقناعي : فاننا نجده فى الكلام التوجيهى أو الحاث على العمل ، وقد أصبح الانسان المعاصر محاصرا بكل انواع الالتماسات الخاصة ، فهو يطالب باتخاذ قرارات متعددة ، ورايه فى السياسة مهم · ذلك ان زيادة السكان والتوسع في الحقوق السياسية ومنح المراة حق الانتخاب ، قد ادت الى زيادة عدد الناخبين كما أن التعليم الشعبى قد أعطى للغالبية العظمى من المواطنين فرصة تعرف قضايا الحكومة ومشكلاتها وملاحظة الهوة بين ما هو عملى وما هو مثالى فى المجتمع ، كما أن تعقـد الحياة فى القـرن العشرين والتقدم في المواصلات الذى أدى الى تقلص العالم وتطور وسائل الاعلام الذى وسع افاق الشخص العادي ـ كل ذلك قد أفسح مجال الرأى ·

ومادام الانسان المعاصر مطالبا باتخاذ عدد متزايد من القرارات · فقد اتخذ الاتصال الاقناعي سمة معاونة هذا الانسان المعاصر على اتخاذ القرار الصحيح من وجهة نظر « المرسل » الذى قد يتخذ ثوب المصلح او كاتب المقال أو الداعية · وهم يطلبون جميعا مشاركة « المستقبل » فى الرأى · ورجـال الاعلان وخبراء العلاقات العامة يريدون منه مجاملة زبائنهم ، والسياسيون يطلبون صوته وكل واحد منهم يطلب قرارا لصالحه ·

وتحتوى وسائل الاعلام على ثلاثة أنواع رئيسية من الاتصال الاقناعى :

اولها ـ الاعلان : Advertising .

وثانيها ـ الدعوة المقصودة : كالمقالات الافتتاحية والرسوم الكاريكاتورية والأعمدة والمقالات التفسيرية التى تؤدى بالقارىء الى الوصول الى استنتاج ·

وثالثها ـ ذلك المضمون الذى يراد به اساسا الترفيه او الاعلام بحيث يكون الاقناع منتجا فرعيا ·

والمستوى الاعلامي : هو الذي يتوسل باللغــة لتوصيل المعلومات فحسب واللغة الاعلامية لذلك هي النوع الذي « نجده على الأرجح في شكل نقي نسبيا » ٠٠ بل ان كتابة العلمــاء تميل الى أن تكون اعلامية صرفه ، وخصــوصا في العلوم الطبيعية ولذلك وجدنا البلاغة العربية تنبيء عن الوصول والانتهاء ٠ وفي التنزيل : « **الا بلاغا من الله ورسالاته** » أي لا أجد منجى الا أن أبلغ عن الله تعالى ما أرسلت به ، **والابلاغ : الايصال** ٠ والاسم : البلاغ ٠

وقال تعالى : « **لقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** » (القصص : ٥١) توصيل القول لهم اتباع بعضه بعضا في التنزيل ٠

ويقدم « هوردلي كانتريل » في كتابه « قياس الرأي العــام » قاعدة عامة تقول : **ان الرأي يتحدد عموما بالأحداث اكثر مما يتحدد بالكلمات** ، ما لم تفسر هذه الكلمات ذاتها على أنها حدث ٠٠ وبالاضافة الى ذلك تنزع الأحداث الى ترسيخ تغيرات الرأي العام الناتجة عن الكلمات ٠

فالمستوى الاعلامي ــ اذن ــ يخاطب العقول لا الغرائز ، ويقدم أكبر قدر من المعلومات الصحيحة والأخبار الصادقة التي تنساب الى عقول الناس ٠ ولذلك كان الاعلام في اللغة العربية نقيض « **الجهل** » لأنه من مادة « **علم** » ، فهو يرفع من مستوى الجماهير وينشد تعاونهم من أجل المصلحة العامة ، **علمه العلم** في اللغة تعني : أعلمه اياه **فتعلمه** ٠ وفرق سيبويه بينهما فقال : **علمت** كأذنت **وأعلمت** كآذنت ، **وعلمته** الشيء فتعلم ، وليس التشديد هنا للتكثير ٠ وقال عمرو بن معد يكرب مستخدما كلمة **تعلم** بمعنى « **أعلم** » :

تعلم ان خيــر النــاس طرا
قتيل بين أحجــار الكــلاب

يقال : **استعلم لي خبر فلان وأعلمنيه** حتى أعلمــه ، واستعلمني الخبــر فأعلمته اياه ، وعلى الرغم من ان الرسالة الاعــلامية هي جوهر التحــرير الاعلامي نجد أن الرمز ذاته جزء من الموقف الاتصالي الاعلامي العام بأبعاده النفسية والاجتمــاعية والثقافية ، فهي مواقف سلوكية تقــدم فرصا مطردة ومتزايدة للمشاركة في الخبرة ، وتحقيق الاعلام ، وكسب المعرفة والفهم ، من خلال استخدام الرموز ٠

وهذه المستويات الثلاثة كائنة في كل مجتمع انســاني ، والفــرق بين المجتمع المتكامل السليم ، والمجتمع المنحل المريض ، هو تقــارب المســتويات اللغوية في الأول وتباعدها في الآخر ٠ فتقارب مستويات التعبير اللغوي دليل

على تجانس المجتمع وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته ، ومن ثم الى تكامله وسلامته العقلية ، فمن الثابت أن العصور التى يسود فيها نوع من التالف بين المستويات العلمية والأدبية والعملية ، هى غالبا أزهى العصور وأرقاها • أما اذا كان كل مستوى لغوى بعيدا كل البعد عن الآخر فهو دليل على الانفصام العقلى فى المجتمع ، وهـذا يؤدى الى التدهور والانحطاط والشيخوخة والانحلال (١) •

فاللغة كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال • والأكثر من هذا كله فانها هى ذلك الجزء من الثقافة أو الحضارة ؛ الذى يساعد أكثر من غيره على التعلم ، وزيادة الخبرة والمشاركة فى خبرات الآخرين ، سواء الخبرات الماضية أو الحالية ، أى أنها العامل الأساسى فى عملية التراكم التى هى أهم عنصر فى الحضارة الانسانية (٢) •

وتعتمد اللغة فى صحتها وقوتها على المستوى العام للغة : القائم على التالف بين المستويات العلمية والأدبية والعملية ، لأن الحديث اليومى حين يحسنه افراد المجتمع ؛ ينشط اللغة ويعيد اليها الشباب • فليس الكلام الانسانى من خلق العلماء أو اللغويين ، بل هو على حد تعبير الدكتور ابراهيم أنيس (٣) من خلق العامة من الناس ممن ربما لم تتح لهم فرصة التعلم فى مدرسة ، وممن لا يكادون يحسنون كتابة أو قراءة •

حقا ان العلماء والأدباء قد يعملون على تنمية اللغة وجعلها غنية حتى تزهر ذلك الجمال الرائع فى النصوص الأدبية ، ولكنا نلحظ أن أندر الثورات وأروعها هى تلك التى تظهر طبيعية ودون رعاية أو تعهد •

على أن جذور اللغة لا تعمق الا فى التربة العامة التى فيها تستمد اللغة عصيرها وغذاءها • هذا اذا قدر للغة ألا تموت وتندثر ، كما اندثرت تلك اللغات القديمة التى انقطعت صلتها بكلام الناس وخطابهم • يجب لهذا ألا تكون هناك فجوة عميقة بين ألفاظ الأدب والحديث اليومى • فقد تتطور تلك

---

1) Imam, I. ; The Language of Journalism, (1969).

(٢) د • أحمد أبو زيد : مجلة عالم الفكر ، العدد الأول بالمجلد الثانى ١٩٧١ م •

(٣) اللغة بين القومية والعالمية ص ٣٢ •

الفجوة الى عزل لغة الأدب وتصبح أشبه باللغة المصنوعة التى تقرر صيغهـا واشكالها بوساطة سلطة عليا كما هو الشأن فى المجامع اللغوية بأوربا ، فقد يصدر المجمع اللغوى قواعد محددة لتنظيم الاستعمال الأدبي ، وقد يفرض النصوص التى يجب أن تعلم فى المدارس ولكنه لن يستطيع السيطرة على ذلك الحديث المرح فى الأسواق ولا على الخطاب العادى فى البيوت وبين افراد الأسرة (١) ٠

وقد حدث هذا لأوروبا في العصور الوسطي عندما كانت اللغة اللاتينية مستأثرة بالدراسات الأدبية ، بينما كانت اللغات الاجتماعية محتقرة ومنبوذة لا تستعملها الا الطبقات العاملة الفقيـــرة ، فعاشت فى عصور مظلمة وباتت تتردى فى الجهل والتعصب والتنافر والتنــابذ ، وفى الوقت نفسه ســادت فى العالم الاسلامي آداب رفيعــة وكانت اللغة العربيــة شــائعة بين الحكام والمحكومين ، مستعملة فى الآداب والعلوم وفى الحيــاة العمليـــة ٠ ولم تكن الفروق بين هذه المستويات شاسعة مفزعة كما كانت في أوروبا بين اللاتينيـة والانجليزية أو الالمانية مثلا ، فكان التآلف فى المجتمع والانسجام بين طبقاته ، والحيوية والتكامل فى العقل الجماعي والوجدان الجماعي (٢) ٠

وقد كانت اللغة العربية في أحلك عصورها في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ــ تعاني من الانفصام العقلي في المجتمع ، حيث سادت لغة أدبية منمقة متكلفة كتقليد سخيف للطريقة الفـاضلية فى الكتـابة عقيمة مصطنعة لم يألفها الشعب ، أما أساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد وكل ما تصبو اليه النفوس وترتفع اليه المطامح أن يقلد الكاتب أسلوب الحريرى فى مقاماته ، كما ألفت كتب تقدم للناس الكلام المصنوع والرسائل المعدة والعبارات المؤلفة والجمل المترادفة ٠ وليس على من يريد أن يكتب فى موضوع الا أن يأخذها بنصها ٠

ومن جهــة أخرى اختفت الفروق اللغوية الدقيقة وأصبحت الألفـــاظ المتقــاربة مترادفة ، بحيث « لم يعـــد الترادف في ذلك العصر مزية من مزايا العربية ، وأصبح مرضا من أمراضها الوافدة المنتشرة ٠ وغلب على النـــاس استعمال الألفاظ فى معانيها العامة ٠ فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية فى عصورها الســالفة ٠ وأدى ذلك الي تداخل معاني الألفاظ حين فقدت الدقة واتصفت بالعموم وفقد الفكر العربي الوضوح

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ ٠

(٢) د ٠ ابراهيم امام : دراسات فى الفن الصحفى ص ٤٦ ٠

حين فقدته اللغـة نفسها ، واتسم بالغموض وانفصلت الألفـاظ عن معانيهـا وأصبحت عالما مستقلا يعيش الناس في جوه بدلا من أن يعيشوا في الحيـاة ومعانيها » (١) ٠

وصفوة القـول أن الخضوع السياسي والنصوصية الفقهيـة والصوفية السلبية والصنعة المتكلفة في الأدب ، كان لها جميعا أثرها في اللغة وانعكاس اشعتها عليها فكان للغة تلك العصور صفات هي الوجه اللغوي لهذه الصفات الاجتماعية الأخرى ٠ وتلك هي أعراض المجتمع المريض والحضارة المنحلة ٠ وقد حدث ذلك في العصور الوسطى في أوروبا كما حدث في انجلترا في مستهل الفتح النورماندي وحدث أيضا في مصر بعد الفتح التركي حتى القرن التـاسع عشر ٠

وليس من قبيل المصادفة أن يكون ظهور أول صحفي مصري وهو رفاعة الطهطاوي في عصر محمد على مقترنا بنهضة علمية ؛ والتحام بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية واهتمام بالترجمة (٢) ٠ فقد كانت اللغـة الموروثة التي كانت تؤدي أغراض عصور الانحطاط في آفاق ضيقة حاملة صفات التفكير السائد في تلك العصور من جحود وضيق في الأفق ، وحملت الحياة الحديثة في أوروبا الى العرب الات جديدة وأفكار جديدة ومشاعر جديدة حملت كـل ما حملته حضارتها من ضروب النشـاط الانساني في الاقتصـاد والسياسة والحياة الاجتماعية ؛ من الوان وصور جديدة ٠ فقامت المشكلة من عجز اللغة العربية كما خلفتها عصور الانحطار عن القيام بعبء التعبير عن معاني هذه الحياة الجديدة المادية والمعنوية ٠

لقد كانت الملاءمة بين الأمرين عسيرة صعبة ، وكان بجمهـرة المتكلمين باللغة العربية حمل هذا العبء والاضطلاع به ، فكان على جمال الدين الأفغاني ويعقوب صـنوع والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل من رواد الصحافة الـذين جمعوا بين الثقـافة العربية والثقافة الأوروبية ؛ أن يخلقوا بجهودهم الرائعة لغة الفن الصحفي العـربي التي تقترب من لغة الأدب وتمتاز بالسلاسة والواقعية والتبسيط ٠

ولقد توجت هذه الجهود بظهور الصحافة الاخبارية الحديثة ، وبالتنويع في وسائل الاقناع الصحفي بالصورة الفوتوغرافية والصورة الكاريكاتورية

---

(١) محمد المبارك خصائص العربية ص ٦ ٠

(٢) د٠ ابراهيم امام : دراسات في الفن الصحفي ص ٤٤ ٠

والعناية بالأخبار الثانية • وقد تطلب ذلك استخدام لغة صحفية تتلاءم مع شعبية الصحافة ، تتوخى السهولة والتبسيط دون أن تهبط الى العامية فى اللفظ أو السوقية فى الفكر (١) •

وهكذا تتقارب المستويات اللغوية العلمية والجمالية والعملية لأننا كلما نزلنا فى سلم التطور الحضارى للمجتمعات وجدنا فروقا شاسعة بين المستويين الأدبى والعلمى للغة •

على أن لغة الفن الاعلامى تقوم على الوظيفية الهادفة والوضوح والاشراق ، وتكاد تكون فنا تطبيقيا قائما بذاته ، فالفن الصحفى الاعلامى تعبير اجتماعى شامل ، ولغته ظاهرة مركبة خاضعة لكل مظاهر النشاط الثقافى من علم وفن وموسيقى وفن تشكيلى الخ • هذا الى جانب السياسة والتجارة والاقتصاد والموضوعات العامة • ومن ذلك يبين أن الفن الصحفى والاعلامى بوجه عام فن تطبيقى يهدف الى الاتصال بالناس ونقل المعانى والأفكار اليهم فهو أداة وظيفية ، وليس فنا جماليا يقصد لذاته • ذلك أن لوسائل الاعلام وظائف محددة : هى الاعلام والتفسير والتوجيه والتسويق والاقناع والتنشئة الاجتماعية • ومع ذلك فلغة الفن الاعلامى تختلف عن كل هذه جميعها لأنها تتضمنها كلها ، ولا تقتصر على أى منها ، لأن جمهور المستقبلين ليسوا قطاعا واحدا من الناس ولكنهم فى الغالب كل الناس ، ولأن الاعلامى يرسل لكل الناس فى كل الأوقات ـ وليس لجزء من الناس فى كل الأوقات أو لكل الناس بعضا من الوقت ـ فانه يجب عليه أن يجاهد لتحقيق هدفه بوجه عام وهو جعل رسالته مفهومة لدى الجميع •

١ ـ بلاغة الكلام : الرسالة الرمزية :

هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته •

والحال هو الأمر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ، سواء كان ذلك الأمر داعيا له فى نفس الأمر أو غير داع فى نفس الأمر بل بتنزيل ، فالحال هو الأمر الداعى مطلقا ، اما ظاهر الحال فهو الأمر الداعى فى نفس الأمر لاعتبار المتكلم خصوصية ما ، فهو أخص من الحال •• والخصوصية هى مقتضى الحال •

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥ •

مثلا : انكار المخاطب للحكم حال يقتضي تاكيده ، والتاكيد مقتضاها ، ومعنى مطابقته له ان الحال ان اقتضى التاكيد كان الكلام مؤكدا ، وان اقتضى الاطلاق كان الكلام عاريا عن التاكيد ، وهكذا ان اقتضى حذف المسند اليه حذف ، وان اقتضى ذكره ذكر ، الى غير ذلك من التفاصيل المشتمل عليها علم المعانى ·

فالانكار حال ، والتاكيد مقتضى ، وقولك « ان زيدا فى الدار » ، مؤكدا بأن كلامه مطابق لمقتضى الحال ، يعنى انه مشتمل عليه ، اذ هذا المثال مشتمل ، على التاكيد ·

ومقتضى الحال مختلف ، فان مقامات الكلام متفاوتة : فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التاخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى ·

وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام ·

٢ ـ واما بلاغة المتكلم (المرسل) :

فهى ملكة يقتدر بها على تاليف كلام بليغ ·

مراتب البلاغة :

وللكلام البليغ مراتب : أعلاها ما يصل الى حد الاعجاز أو ما يقرب منه ، مما يتبينه الأبناء فى كلام الله تعالى وكلام رسوله الكريم ·· ودون ذلك مراتب كثيرة ، تتفاوت فيها اقدار البلغاء ، من الكتاب والشعراء ورجال الأدب ·· كما يفضل النسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ويعظم الفضل فى ذلك ، وتكثر المزية ، حتى يفوق الشيء نظيره ، وتتفاوت القيم تفاوتا شديدا ، كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ، ويترقى منزلة فوق منزلة لخصائص يصادفها فى سياق لفظه ، ورقة معانيه ·

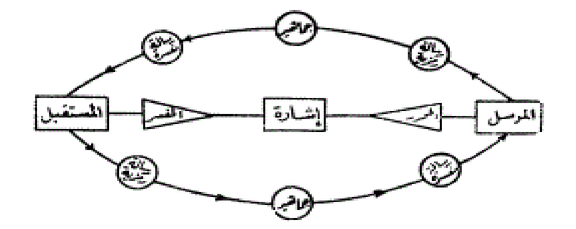
ولا سبيل الى ذلك الا بالنظر فى كلام العرب ، وتتبع شعارهم ، ودراسة علوم البلاغة ، لتتعرف فيها تلك الخصوصيات التى تكسب الكلام فخامة وجمالا ·

النسبة بين الفصاحة والبلاغة

١ ـ البلاغة فى الكلام مرجعها الى : الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره ٠

فكل بليغ ـ كلاما كان أو متكلما فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ٠

٢ ـ وهناك فرق آخر بين الفصاحة والبلاغة ، فالفصاحة يوصف بها المفرد والكلام ، (الرسالة الرمزية) والمرسل فقط ، فلا يقال : لفظ بليغ ٠



ويوضح هذا النموذج الدورة البلاغية من المرسل الى المستقبل ، والتى تتضمن كل عناصر البلاغة الجديدة : المرسل ـ المحرر ـ الاشارة ـ المفسر ـ المستقبل ـ الرسالة الرمزية ٠٠ على النحو الذى يجعل البلاغة الجديدة تحرص على عملية الاتصال البلاغى بالجماهير ككل ، وبحيث تصبح « الرسالة » البلاغية مجرد عنصر من عناصر يتناغم مع غيره من العناصر فى البلاغة الجديدة ٠

الباب الرابع

علوم البلاغة

علوم بلاغية :

تتبع بلاغة الكلام وجوه آخر سوى المطابقة والفصاحة تورث حسنا ، وانما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة ، وهى تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم ، لأنها ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة وتسمى علم البديع ٠

فالبلاغة فى الكلام مرجعها الاحتزاز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، والا لربما أدى المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغا ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره ، والا لربما اورد الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح فلا يكون أيضا بليغا لوجوب وجود الفصاحة فى البلاغة ، ويدخل فى تمييز الكلام الفصيح من غيره تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها لتوقفه عليها ٠

وتمييز الفصيح من غيره بعضه يبين فى علم متن اللغة كالغرابة ، بمعنى ان من تتبع الكتب المتداولة واحاط بمعانى المفردات المأنوسة علم ان ما عداها مما يفتقر الى تنقير أو تخريج فهو غير سالم من الغرابة ، أو فى علم التصريف كمخالفة القياس اذ به يعرف أن الاجلل مخالف للقياس دون الاجل ، أو علم النحو كضعف التأليف والتعقيد اللفظى ، أو يدرك بالحس كالتنافر اذ به يعرف أن مستشزرا متنافر دون مرتفع ، وكذا تنافر الكلمات وهو ما عدا التعقيد المعنوى ٠

فعلم أن مرجع البلاغة بعضه مبين فى العلوم المذكورة وبعضها مدرك بالحس وبقى الاحتزاز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد والاحتزاز عن التعقيد المعنوى فمست الحاجة الى وضع علمين مفيدين لذلك فوضعوا علم المعانى للاول ، وعلم البيان للثانى ٠٠ فما يحترز به عن الخط فى تأدية المعنى المراد هو علم المعانى ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوى هو علم البيان ، وسموا هذين العلمين علم البلاغة لمكان مزيد اختصاص لهما بالبلاغة وأن كانت البلاغة تتوقف على غيرهما من العلوم ، ثم احتاجوا لمعرفة توابع البلاغة الى علم آخر ، فوضعوا لذلك علم البديع ، فما يعرف به وجوه التحسين هو علم البديع ٠

شواهد لمطابقة الكلام لمقتضى الحال :

١ ــ اذا أردت أن تنفى عن نفسك فعل شىء من غير أن تشير الى أن غيرك فعله ، قلت : « ما فعلت » فاذا أردت أن تشير الى أن غيرك فعله تقول :

« ما أنا فعلت » ، فانت قد جعلت لكل معنى من هذين مقالا على وفقه ، وطابقت بقولك مقتضى الحال ٠

٢ ـ وقال تعالى فى سورة الجن :

« وانا لا ندرى اشر أريد بمن فى الارض ام اراد بهم ربهم رشدا » ٠

ففعل الارادة جاء مع الشر على صـــورة المبنى للمجهول ، ومع الرشد على صورة المبنى للمعلوم ، والحال الداعية الى بناء الاول للمجهول ـ التاديب فى جانب الله تعالى بعدم نسـبة الشر صراحة اليه ، وان كان الخير والشر مما قدره الله تعالى واراده ٠

٣ ـ اذا قلت : « على الله أعتمد ، فقـــد أردت ان تقصر اعتمـادك على الله وحده ، ودللت على ذلك بتقديم « على الله » على الفعل « اعتمد » ، ولو قلت : أعتمد على الله » لم يكن فى قولك ما يدل على قصر اعتمادك على الله ، فارادة القصر ، على أبسط الصـور الدالة عليه ، حال دعت الى تقديم الجار والمجرور على الفعل ٠

شواهد للكلام البليغ :

١ ـ قال الله تعالى فى الرد على من انكر البعث : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من **يحيى العظـــام وهى رميم** ٠ قل يحييها الذى انشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم ٠ الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منـه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ٠ انما أمره اذا اراد شـــيئا ان يقول له **كن فيكون** ، **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون** » ٠

تناولت هذه الآيات الكريمة اثبات البعث ، والرد على من انكره فى ابلغ صورة واوفى حجة ، وقطعت على المنكرين سبيل الدفاع عن رأيهم الباطل ، وحجتهم الداحضة ، فان القادر على بدء الخلق لا يعجزه أن يعيده لان الاعادة ليست باصعب عند ذوى العقول من الابتداء ٠ وقد زاد الله هذه الحجة قوة ووضوحا ، فذكرهم بقدرته على اخراج النار مما ينبت من الماء ، والماء والنار من خلق الله ، فمن قدر على ذلك فليس بمنكر عليه ان يعيد ما افناه ، ثم قوى هذه الحجة وزادها شرحا وبلغ بها غاية الايضاح والتوكيد بما نبه اليه ، من

أن اعادة الناس بعد الموت ليست أصعب من خلق السموات والارض ابتداء ·
وفى ذلك يقول الله تعالى فى آية أخرى :

« لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ·

ثم اثبت سبحانه وتعالى لنفسه القدرة المطلقة ، والارادة النافذة ، فى قوله تعالى :

« انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون » · ويدل على ان كل المخلوقات ملكه ، وان مصير الناس اليه بقوله : **« فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون »** · فما ترك زيادة لمستزيد ، ولا حجة لمعاند مكابر ·
وهذا النوع من البلاغة لا تصل اليه قدرة الناس وان اجتمعوا له :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ·

٢ ــ وقال بعض الكتاب يمدح أميرا :

« مثلك أوجب حقا لا يجب عليه ، وسمح بحق وجب له ، وقبل واضح العذر واستكثر قليل الشكر ، لازالت اياديك فوق شكر اوليائك ، ونعمة الله عليك فوق آمالهم فيك » ·

فانظر كيف وصف ممدوحه فأجاد صفته ، فهو كريم يرى العطاء فرضا ويتجاوز عما وجب له من الحقوق ، ويقبل عذر المعتذر ويرى ما قل من الشكر كثيرا فى جنب عطائه ·

ثم هو بعد ذلك يدعو للممدوح ان تكون نعمه دائمة لاوليائه ، تزيد على شكرهم وتربو على ثنائهم ، وان تكون نعم الله تعالى عليه فوق مايؤملون له ، ويرجون عنده ·

وكل ذلك فى عبارة متخيرة ، ونسق جميل دل على بلاغة الكاتب ، وتمكنه من صناعته ·

٣ ــ ومن جوامع كلم النبى صلى الله عليه وسلم : « كفى بالسلامة داء » ·
والمعنى ان الرجل اذا طالت به الحياة ، وامتد العمر ، كان طول حياته سببا فى كبره ، وضعف صحته ، وعجزه عن القيام بأموره ، ولقد يمتد به ذلك حتى

يصير عجزا عن القيام والقعود ، وتناول الطعام والشراب ، والاستمتاع بما يقع تحت بصره من دواعي السرور والفرح • افليس هذا داء لا دواء له الا ان يستريح الجسم الفاني من متاعب الحياة ، ويذهب الى ربه •

ولقد جمع الحديث الشريف هذه المعاني في ثلاثة الفاظ ، فما نقص منهـا شيئا وهذا ما اراده بعض الحكماء بقوله : « البلاغة قول يسير ، يشتمل على معنى خطير » • وعبر عنه الاخر بقوله : « البلاغة علم كثير في قول يسير » •

واول من نطق بهذا المعنى : النمر بن تولب ، احد شعراء العصر الجاهلي اذ يقول :

يود الفتى طـول السـلامة والغنى
فكيف تـرى طول السلامة يفعـل

يرد الفتى بعـد اعتـدال وصحة
ينوء اذا رام القيـام ويحمـل

وقـال حميد بن ثور :

ارى بصري قـد رابني بعـد صحة
وحسـبك داء ان تصـح وتسـلما

وقال آخر :

ودعـوت ربي بالسـلامة جـاهدا
ليصـحني فـاذا السـلامة داء

وقال ابن الرومي :

لعمـرك ما الدنيـا بدار اقـامة
اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقـاء العيش فيهـا وانمـا
ينـال باسباب الفنـاء بقـاؤها

وقد جاء ابن الرومي غامضا مبهما ، يحتاج الى كد الذهن ، وطول الفكر فانه يريد بقوله : « وانما ينال باسباب الفناء بقاؤها » • ان الانسان انما ينال البقاء طويلا في الدنيا بامتداد عمره ، وهذا الامتداد هو سبب الفناء ، لأن للعمر

نهـاية ، وكل يوم يمر منه يقرب هذه النهاية مهما تكن بعيدة لأن واحدا مـن ايام الحياة المعدودة ، ينقص عددها ، ويقرب اخرها ٠

وقريب من هذا قول محمد بن علي رضى الله عنهما :

« مالك من عيشك الا لذة تزدلف بك الى حمامك ، وتقـربك من يومك ، فتأمل امرك ، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود ، أو الخيال المخترم » ٠

٤ ــ وقال المأمون لأم الفضل بن سهل بعد قتله اياه : « اتجزعين ولك ولد مثلى ؟ » قالت : « لا أجزع على ولد افادنى اياك ! » فانظر كيف أراد ان يلزمها الحجة في ترك الجزع بأنه بمنزلة الولد ، وفي مثله وهو امير المؤمنين كفـاية من الحاجة ، ورادع عن الحزن ٠ ولكنها جاءت بما هو أبلغ في الحجة وآثر عند المفاضلة ، اذ قلت له : « ان بنوتك لى لم تجىء الى الا من ناحيته ، فهـذا الخير الذى اجتنيه من بنوة أمير المؤمنين ــ خير ورثتيه من أبكيه ، وفضله ظاهر فيه ، فهو ببكائي لذلك جدير » ٠

٥ ــ وقال المأمون ليحيى بن اكثم القاضي : « صف لي حالي عند الناس » ٠ فقال : « يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمتها ، وملكتك الامة فضول اعنتها ، بالرغبة اليك ، والمحبة لك ، والرفق منك ، والعياذة بك ، بعدلك فيهم ، ومنك عليهم حتى لقد انسيتهم سلفك ، وآيستهم خلفك فالحمد الله الذى جميعنا بك بعد التقاطع ورفعنا فى دولتك بعد التواضع » ٠ فقال : « يا يحيى ، اتحبيرا ام ارتجالا ؟ ، قال يحيى : وهل يمتنع فيك وصف ، ويتعذر على مادحك قول ، أو يفحم فيك شاعر ، أو يتلجلج خطيب ؟ » ٠

٦ ــ ودخل اعرابى على المنصور فتكلم ، فاعجب بكلامه ، فقال : « سل حاجتك » ٠ فقال : « يبقيك الله ، ويزيد فى سلطانك » ٠ فقال : « سل حاجتك ، فليس فى كل وقتتؤمربذلك » ٠ فقال : « ولم يا امير المؤمنين ؟ فوالله ما استقصر عمرك ، ولا اخاف بخلك ، ولا اغتنم مالك ، وان سؤالك لشرف ، وان عطاءك لزين ، وما بامرىء بذل وجهه اليك نقص ولا شين » ٠

فانت ترى ان كلا من يحيى والاعـرابى قـال على البديهة قولا جميلا ، اجاد فى وصف ممـدوحه ، فبلغ الغاية ، واحرز قصب السبق ، وجـرى فى قوله جريان السيل ، وانصب انصباب القطر ٠

٧ ــ ومن جيد الشعر قول معن بن اوس :

لعمـــرك ما اهــويت كفى لريبــة
ولا حمــلتنى نحــو فاحشة رجلى

ولا قادنى ســمعى ولا بصرى لهــا
ولا دلنى رأيى عليهــا ولا عقـــلى

واعــلم انى لم تصـــبنى مصيبة
من الدهر الا قد اصابت فتى قبلى

ولست بمــاش ما حييت لمنـــكر
من الأمــر لا يمشى الى مثله مثلى

ولا مؤثر نفسى عـــلى ذى قــرابة
واوثر ضيفى ما اقــام على اهلى

فقد وصف نفسه فى شعره بصفات من الكمال ، سردها فى اسلوب عذب سائغ لا يكد ذهنا ، ولا يستوجب تفــكيرا ، فهو يقول : ان يديه طاهرتان مــن الدنس ، وان قدميه لا تسيران به الى ما يثلم العرض ، ويستوجب الذم ، وان سمعه وبصره ورأيه وعقله لا تقوده الى مواطن الشبه ، ولا تحمله الى اماكن الريب · ويقول : انه ممن يشاطرون ذوى القربى اموالهم ، ويؤثرون ضيوفهم على أهلهم ، فبسط طهارته وكرمه فى ابياته بسطا سائغا جميلا ·

٨ ــ ومما هو جيد فى رصفه قول العباس بن الاحنف :

اليــك اشـــــكو رب ما حــــل بى
من صــد هــذا التـــائه المعجب

ان قــال لم يفعـــــل وان سيل لم
يبـــــذل وان عوتب لم يعتـــب

صب بعصـــــيانى ولو قــال لى
لا تشرب البـــــــارد لم اشرب

فانظر كيف وصف صــاحبه بالاعراض ، وعــدم الشــفقة ، والمبالغة فى الهجر ، حتى كانه مغرم بالمخالفة ، مع شدة طاعة الشاعر لصاحبه ، وحرصه على ارضائه ، ولو كان فى ذلك ما يشق احتماله · فجاءت ابياته الثلاثة كما قال بعض الادباء : « هذا والله الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ ، العذب المستمع القليل النظير العزيز الشبيه ، المطمع ، البعيد مع قربه ، الصعب فى سهولته » ·

٩ ـ ومن جيد الشعر قول البحترى يمدح جعفرا :

ايهـا الراغب الـذى طلب الجـو
د فـابـلى كـوم المطـايا وانضى

رد حيـاض الامـام تلق نوالا
يسمع الراغبين طـولا وعرضـا

فهنـاك العطـاء جـزلا لمن را
م جزيل العطاء والجـود محضا

هوانـدى من الغمـام واوحى
وقعـات مـن الحسـام وامضى

يتوخى الاحسـان قـولا وفعـلا
ويطيـع الالـه بسـطا وقبضـا

١٠ ـ وقوله من قصيدة أخرى يمدحه :

خلق الله جعفرا قيم الدنيا سدادا وقيم الدين رشدا
اكرم الناس شيمة واتم الناس حلما ، واكثر الخلق رفدا

هو بحـر السماح والجـود فازدد
منه قربا ، تـزدد من الفقـر بعـدا

ياثمـال الدنيـا عطـاء وبذلا
وجمـال الدنيا ثنـاء ومجـدا

ابق عمـر الزمـان حتى نـؤدى
شكر احسـانك الـذى لا يـؤدى

— ١ —

اراء مأثورة في البـلاغة

لبشر بن المعتمر فيما يجب ان يكون عليه الخطيب والكاتب رســالة من الرسائل الادبية البليغة ، جمعت حدود البلاغة ، وصورتها احسن تصوير ، وسنذكر بعضها مع شيء من الايجاز قال :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك فان قليل تلك الساعة اكرم جوهرا ، واشرف حسبا ، واحسن في الاسماع ، واحلى في الصدور ، واسلم من فاحش الخطا ، واجلب لكل عين وغرة : من لفظ شريف ، ومعنى بديع · واعلم ان ذلك اجـدى عليـك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ·

واياك والتوعر (١) · فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هـو الذي يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك · ومن اراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ··

وكن في ثلاث منازل : فان اولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما ســهلا ، ويكون معنـاك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة اردت · والمعنى ليس يشرف بان يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معاني العامة · وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقـام من المقـال · وكذلك اللفظ العـامي والخاصي · فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك — على ان تفهم العـامة ، معاني الخـاصة وتكسوهـا الالفاظ الواسطة (٢) التي لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التـام ·

---

(١) التوعر : التعبير بالالفاظ التي يصعب فهمها ·

(٢) التي فوق السهل ودون الصعب ·

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها — فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن ، والنزول في غير اوطانها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان انت تكلفته ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك ، بصيرا بما عليك أو ما لك — عابك من انت اقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك ·

فان ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق ·

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال — فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك واخفها عليك ··· لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع المحبة والشهوة · فهكذا هذا ·

وينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ويقسم اقدار المعاني على المقامات ، واقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات » ·

— ٢ —

وقال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري في كتاب الصناعتين :
« الكلام — ايدك الله — يحسن بسلاسته ، وسهولته ونصاعته وتخير لفظه ، واصابة معناه ، وجودة مطالعة ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل اطرافه ، وتشابه اعجازه بهواديه ، وموافقة ماخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته ، بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون في الالفاظ اثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتاليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فاذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا ، وبالتحفظ خليقا — كقول الأول :

هم الاولى وهبوا للمجد انفسهم
فما يبالون مانالوا اذا حمدوا

وقول الآخـــر :

ولست بنظـــار الى جانب الغنى
اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وقول النابغـــة :

ولست بمســـتبق اخــــا لا تلمه
على شعث اي الرجـــال المهذب

فاذا كان الكلام قد جمـــع العذوبة والجـزلة والسهولة والرصانة مـــع السلاسة والنصاعة ، وسلم من حيف التاليف ، وبعـــد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه . والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ...

والفهم يانس من الكلام بالمعروف ، ويسكن الى المالوف ، ويصغى الى الصواب ، ويهرب من المحال ... ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

والفهم يانس من الكلام بالمعروف ، ويسكن الى المالوف ، ويصغى الى الصواب ، ويهرب من المحال ... ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

ولاخير فى المعانى اذا استكرهت قهرا ، والالفاظ اذا اجترت قسرا ، ولا خير فيما اجيد لفظه اذا سخف معناه ، ولا فى غرابة المعنى الا اذا شرف لفظه مع وضوح المغزى ، وظهور المقصد .

وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا عـــلى معنـــاه الا بكد ، ويستفصحونه اذا وجدوا الفاظه كزة غليظة وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام اذا راوه سلسا حلوا ، وعذبا سهلا ، ولم يعلموا ان السهل امنع جانبا ، واعز مطلبا ، وهو احسن موقعا ، واعذب مستمعا ، ولهذا قيل : « اجـــود الكلام السهل الممتنع » .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة ، فقال : « هو ابلغ الناس . ومن بلاغته ان كل احد يظن انه يكتب مثل كتبه ، فاذا رامها تعذرت عليه .

ومما ذكره صاحب الصناعتين نتبين ان جمال الكلام وبلاغته يجيئـان من جهتين :

١ ـ ناحية المعنى ، بان يكون حسنا مقبولا ، مدلولا عليه بما يوضحه ٠

٢ ـ ناحية اللفظ ، بان يكون متخيرا متناسقا ، قد وضعت كل لفظة منـه فى مكانها المناسب ، وارتبطت بما قبلها وما بعدها ارتباط اخوة والفة وتناسب فى غير زيادة مملة ، ولا نقص مخل ٠

— ٣ —

وقال ابن وهب فى كتابه « البرهان » :

« حدها عندنا انها القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحه اللسان ، وانما اضفنا الى الاحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لأن العامى قد يحيط قوله بمعناه الذى يريده ، الا انه بكلام مر ذول من كلام امثاله ، فلا يكون موصوفا بالبلاغة ٠ وزدنا فصاحة اللسان ، لأن الاعجمى واللحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونا موصوفين بالبـلاغة ٠ وزدنا حسن النظام ، لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتى على المعنى ، ولا يحسن ترتيب الفاظه ، وتصيير كل واحدة منها مع ما يشاكلها ، فلا يقع ذلك موقعه ٠

وقال ايضا : البلاغة ثلاثة مذاهب : المساواة ، وهو مطابقة اللفظ للمعنى لا زائدا ولا ناقصـا ٠ والاشـارة ، وهو ان يكون اللفظ كاللمحـة الدالـة ٠ والتذييل ، وهو اعـادة الالفـاظ المترادفة عـلى المعنى الواحد ، ليظهر لمن لم يفهمه ، ويتاكد عند من فهمه » ٠

— ٤ —

وسال معاوية بن ابى سفيان صحارا العبدى : ما البلاغة ؟ قال : « ان تجيب فلا تبطى ، وتصيب فلا تخطى » ٠

وقال الفضل : « قلت لاعرابى ما البلاغة » ؟ قال : « الايجـاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل » ٠



وسائل الاعلام امتدادات بلاغيه :

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول ان وسائل الاعلام والاتصال بالجماهير كامتداد تكنولوجي للغة بمفهومها العام ؛ قد جاءت كامتدادات بلاغية لتعطى للبلاغة مفهوما اشمل يرتبط بمصطلح « الاتصال » كما تقدم ؛ ولكي تؤثر تأثيرا اجتماعيا خطيرا ٠

فلما كان الانسان يستطيع خلق الرموز فانه يمتلك قدرات لا تمتلكها الحيوانات الأخرى كالقدرة على التعبير عن الأهداف والمعاني والرغبات المركبة ، ومن ثم القدرة على تغيير اشكال الحياة الاجتماعية ٠ وهكذا فان الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية التى تعتمد على تجميع المعلومات وتبادلها ونقلها ٠ ولا يستطيع ان ينجز اى تنظيم اجتماعى ، بدائيا كان او غير بدائى بدون اتصال ٠ وبدون اتصال يظل المجتمع راكدا ومبنيا على السلوك الغريزى الذى لا يختلف كثيرا عن مجتمعات الحيوانات ٠

فليس غريبا ان يؤكد جون ديوى John Dewey انسانية الاعلام ويعزو استمرار المجتمع الى استمرار الاعلام ، ويذهب الى ابعد من ذلك حين يقول ان قيام المجتمع الانسانى مبنى على الاتصال البشرى او الاعلام بوجه عام ٠ فالاتصال او الاعلام هو حجر الزواية لقيام المجتمع الانسانى وظهور قيمه ومؤسساته ٠

ويذكر هارولد لاسويل Lasswell أن كل مجتمع سواء كان بدائيا او متقدما لابد وان يحقق فيه الاعلام ثلاثة اهداف هي : مراقبة البيئة ، وربط اوامر المجتمع ، واستجابته للبيئة ، ونقل التراث الاجتماعى وتوارثه ، ثم جاء ولبرشرام فلخص هذه الأهداف بقوله انها الرقابة والتجمع والتعليم واضاف اليها الترفيه ٠

ومن أهم الذين أسهموا فى شرح العلاقة بين الاعلام والمجتمع عالم الاقتصاد الكندى هارولد ادمز انيس Harold Adams Innis الذى أصبح فيما بعد مفكرا اعلاميا واسع الصيت ، ويؤكد هذا العالم ان طبيعة الجهاز الاعلامى تؤثر على طبيعة المجتمع نفسه ٠ فهو يقول مثلا ان الكتابة على الجلد او الرق فى العصور الوسطى كان معناها حصر المعرفة فى نطاق ضيق ، وخلق ارستقراطية ثيوقراطية دينية فكرية ٠فى حين ان اختراع الورق بثمنه الزهيد

قد ادى الى انتشار المعرفة على نطاق واسع وكان من الطبيعى ان تنتقل السلطة من أيدى كبار رجال الدين الى الطبقة الوسطى من المدنيين ٠

ثم يقول ان تطور حركة الاصلاح الدينى تعزى الى الطباعة ، وكذلك تطور الأدب الشعبى ، كما أن نشوب الثورة الصناعية كان مقتاح التبشير بالديمقراطية ، ثم اختراع الطباعة والاذاعة والتليفزيون معا ادى الى ظهور طبقات البروليتاريا التى اخذت تسود العالم من خلال النظرة الاشتراكية المعاصرة ٠

ومن اشهر نظريات الاعلام الحديثة نظرية ماكلوهان McLuhan الذى اكتشف معنى الطباعة باعتبارها وسيلة للاعلام الجماهيرى ٠ ويقول ماكلوهان ان المجتمع يعيش مرحلة شفوية قبل اختراع الأبجدية او الألف باء ٠ وعندما ظهرت حروف الكتابة كان معنى ذلك تحول الحضارة الشفوية الى حضارة بصرية ٠ ويذهب ماكلوهان الى أن اختراع الحروف المتفرقة فى الطباعة قد جعل الانسان يطور الفهم على اساس الخطوط المتصلة المتلاحقة والمستمرة ٠

وعندما جاء عصر الكهرباء زالت حدود المكان والزمان وخاصة بالنسبة للتليفزيون الذى أكد تعدد الأحاسيس البصرية والسمعية وخضوعها جميعا للتأثير فى وقت واحد ٠ ولعل اشهر عبارة قالها ماكلوهان : ان « الرسالة هى الوسيلة » ، والتى تعنى أن المجتمع يتشكل عن طريق طبيعة الوسيلة الاعلامية نفسها وليس مجرد الرسائل الاعلامية ٠ وبعبارة أخرى تصبح الطباعة نفسها اهم من الرسائل المطبوعة ، كما ان التليفزيون فى حد ذاته كوسيلة اهم من جميع ما يذاع من خلاله ٠

ويذهب ماكلوهان الى أن وسائل الاعلام من اهم العوامل المؤثرة فى تشكيل الحضارات ٠ وفى رأيه أن حروف الطباعة المتفرقة هى المسئولة عن خط الانتاج فى عالم الاقتصاد وهى المسئولة أيضا عن فلسفة نيوتن وفلسفة ديكارت ، وفيهما تصور للحدث الطبيعى فى المكان والزمان ٠

غير أن كثيرا من العلماء لا يذهبون مذهب ماكلوهان فى اعتبار وسائل الاعلام ذات اثر هائل ، ومع ذلك فهم لا ينكرون أن للاعلام دوره الخطير فى الضبط الاجتماعى ، ومساندة النظام السياسى ، وشتان بين هذا الاتجاه وغيره من الاتجاهات الليبرالية التى تعتبر الاعلام قوة تحريرية مقاومة للجهل والطغيان والغيبيات ومعضدة للعقلانية والضمير الانسانى والوجدان السليم ٠

غير أن النظريات الحديثة لا تذهب مذهبا مثاليا • وان كانت لا تنكر المهمة التنويرية للاعلام •

فالعالم كلابار Klapper مثلا يرى ان الاعلام يحقق هندسة الاتفاق او التاييد ، ولعله قد اخذ عبارته من كتاب ادوارد بيرنيز Edward Bernays خبير العلاقات العامة بعنوان The Engineering of Consent بحذافيرها • وليس معنى هندسة الرضاء او الموافقة او التاييد ان يكون العمل الاعلامي ضارا أو منحرفا أو خبيثا ، فمن الممكن كسب الرضاء او الثقة بالنسبة لقضايا خيرة بطبيعتها •

ومن الواضح أن المجتمعات الحديثة سواء في الشرق الاشتراكي أو الغرب الليبرالي قد أخذت تهتم بدور الاعلام في هندسة الثقة والرضاء كما أنها أخذت في الابتعاد عن استخدام العنف واستبدلته بالاقناع والايحاء •

ومع ذلك فان جمهرة العلماء من أمثال لازرسفيلد Lazarsfeld وميرتون Merton وكلابار Klapper لا يعتبرون أجهزة الاعلام ذات اثر هائل ، وهم يرون أن أجهزة الاعلام تعمل في المجتمع بطريقة تكمل المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالأسرة والمسجد والأصدقاء والمدرسة والجامعة والنادي وغيرها • ويذهب الناس الى أجهزة الاعلام ليروا ما يريدون رؤيته لا ما تريد الأجهزة الاعلامية أن تعرضه • ومن المؤكد ان الاعلام له تاثيره في المجتمع ، ولكن هذا التاثير لابد ان تؤيده عوامل اخرى بعضها نفسي وبعضها اجتماعي •• وفي غيبة هذه العوامل لا يكون تاثير الاعلام عارما كما كان البعض يتوهمون في منتصف هذا القرن •

مما تقدم يمكن ان نذهب الى أن البلاغة الجديدة تتميز بـ :

١ ـ انها غير مباشرة بمعنى أن هناك أجهزة ضخمة باهظة التكاليف معقدة الادارة كالمطابع ودور النشر ومحطات الاذاعة واستوديوهات السينما • وهذه الأجهزة هي وسائل لنقل المعلومات والقيم بين المرسل والمستقبل ، على العكس من الاتصال الشخصي الذي يكون فيه الاتصال مباشرا بين المرسل والمستقبل او الجماهير •

٢ ـ انها تصل الى الكتل الجماهيرية العريضة Masses ، حتى ليمكن القول دون مبالغة ان البلاغة الجديدة بفضل وسائل الاعلام أصبحت على مستوى كوكبي ، فالكرة الأرضية على حد قول مارشال ماكلوهان قد أصبحت « قرية الكترونية » •

٣ ـ يتم الاتصال بسرعة مذهلة بل ان الاعلام يجرى أثناء وقوع الأحداث نفسها ، فالمجريات البرلمانية لا تغطى بعد حدوثها ، بل تغطى أثناء حدوثها وينطبق نفس الشيء على المحاكمات ومباريات كرة القدم ومباريات الرياضة بوجه عام ، وفى الأولمبياد الأخير ، كانت مباريات ميونيخ تشاهد فى الكويت وفى دلهى بوضوح ، ونفس الشيء بالنسبة للأردن والمغرب مثلا ٠ ومن المنتظر أن يتم صنع القمر الصناعى العربى للاتصالات الاذاعية فى السنوات القليلة القادمة ٠

٤ ـ يضطر القائم بالاتصال الى افتراض انسان متوسط الثقافة يوجه اليه رسالته ، ولكن هذه المتوسطات متعددة ومن هنا جاءت الميزة البلاغية المتعددة هى الأخرى ٠

ولا يعتبر ذلك ترفعا أو تعاليا او تجزيئا للمجتمع بحال من الأحوال ، وانما يتسم بالواقعية والعلمية ٠ فمن الضرورى أن يكون المجتمع نصب عين علم البلاغة الجديدة يدرس صفاته وخصائصه ويتبين مزاياه ومكوناته ٠

الباب الخامس

علم المعانى فى البلاغة العربية

علم المعـــانى

هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال ·

المقصـــود من علم المعـانى :

ثم المقصود من علم المعـانى منحصر فى ثمانية أبواب :

أولهـا : احـوال الاسناد الخبرى ·

وثانيها : احوال المسـند اليه ·

وثالثها : احـوال المسـند ·

ورابعها : احوال متعلقات الفعـل ·

خامسها : القصر ·

سادسها : الانشاء ·

سابعها : الفصـل والوصل ·

ثامنهـا : الايجاز والاطناب والمساواة ·

ووجه الحصر ان الكلام اما خبر او انشاء ، لأنه اما ان يكون لنسـبته خارج تطابقة أو لا تطابقه · اولا يكون لها خارج ··· الأول الخبر ، والثانى الانشاء ، ثم الخبر لابد لـه من اسـناد ومسـند اليه ومسند ، واحوال هـذه الثلاثة هى الابواب الثلاثة الأولى ، ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع : ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهـا يكون امـا بقصر أو بغير قصر ، وهـذا هو الباب الخامس : والانشاء هو الباب السادس ثم الجملة اذا قرنت بأخرى فتكون الثانية امـا معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع ، ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة ، أو غير زائد عليه ، وهذا هو البـاب الثـامن ·

الخبر والانشـــاء

الكلام اما خبر ، واما انشاء ، فالخبر : كلام يحتمل الصدق والكذب ، نحو قولك : هو كالأسد بأسا ، والبحر جودا ، والسيف مضاء • فقد تكون النسبة الكلامية المفهومة من هذه الجملة مطابقة لما فى الخارج فيكون الخبر صادقا ، أو غير مطابقة له ، فيكون الخبر كذبا ، والمخبر به كاذبا •

والانشاء : هو الكلام الذى لا يحتمل الصدق والكذب (١) نحو : جد فى عملك • ونحو : ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعـا !

فانت فى المثال الأول تطلب من المخاطب الاجتهاد وفى الثانى تتعجب من حسن الدين والدنيا مجتمعين • وليس الطـلب والتعجب مما يحتمل صـدقا ولا كذبا •

ولكل جملة ركنان :

١ ـ محكوم عليه أو مخبر عنه ، ويسمى (مسندا اليه) ، وذلك : كالفعل ، ونائبه والمبتدأ الذى له خبر ، واسم ان وكان واخواتهما ، والمفعول الأول من ظن واخواتها •

٢ ـ ومحكوم به أو مخبر به ويسمى (مسندا) وذلك : كالفعل وخبر المبتدأ ، وخبر كان وأخوتها ، والمبتدأ المكتفى بمرفوعه ، واسم الفعل •

وما زاد عـلى ذلك فهـو قيـد فى الجمـلة ، كادوات الشرط والنفى ، والنواسخ والمفعولات ، والحال والتمييز ، والتوابع ، وضمير الفصل •

فاذا قلت : جلس صادق اليوم أمام الحديقة على الكرسى ، كان « جلس » هو المسند ، و « صادق » هو المسـند اليه ، وما بعـد ذلك من ظرفى الزمـان والمكان والجار والمجرور قيودا للجملة • وقس على ذلك •

---

(١) التحقيق ان الفارق بين الخبر والانشاء هو قصد المطابقة أو قصد عدمها فى الخبر ، والانشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها •

احوال الاسناد الخبرى

اضرب الخبر :

تختلف صور الخبر فى اساليب اللغة باختلاف احوال المخاطب ، فتراه حينا مجردا من أدوات التوكيد ، وتجده حينا مؤكدا بمؤكد واحد ، وحينا مؤكدا بأكثر من مؤكد ، فيقال :

١ ـ الفراغ مفسدة ٠

٢ ـ ان الفراغ مفسدة ٠

٣ ـ ان الفراغ لمفسدة ٠

وهذه الأحوال الثلاثة تسمى اضرب الخبر اى أنواعه ٠

١ ـ فيتجرد الخبر من التوكيد حين يكون المخاطب خالى الذهن من مدلول الخبر ، نحو : الحق احق ان يتبع ٠ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ٠ الحياء زينة الانسان ٠

٢ ـ ويؤكد بمؤكد واحد حين يكون المخاطب شاكا فى مدلول الخبر ، طالبا التثبت من صدقه ، نحو : ان الصدق منج ٠

٣ ـ ويؤكد بمؤكد أو اكثر ٠ حين يكون المخاطب منكرا ، نحو : قوله تعالى : « **ان النفس لامارة بالسوء** » ٠

ويقع التوكيد : بأن كما فى المثال السالف ، وبأن ، نحو قوله تعالى : « **لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما** » ٠ وباحرف التنبيه ، نحو قوله تعالى : « **هاانتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم** » ٠ وبالقسم ، مثل : تا لله لا يذهب العرف بين الله والناس ٠ وبنون التوكيد ، نحو قوله تعالى : « **لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم** » ٠ وقوله تعالى : « **ليسجنن وليكونا من الصاغرين** » وبالحروف الزائدة ، نحو قوله تعالى : « **لست عليهم بمسيطر** » وقوله تعالى : « **كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون** » ٠ وباما الشرطية التفصيلية ، كقوله تعالى : « **اما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى** » ٠

وكما يكون التوكيد فى الاثبات يكون فى النفى ، كما فى بعض الأمثلة السابقة ، ونحو : ما المقتصد بمفتقر ، ونحو : والله ما المستشير بنادم ٠

اغراض الخبر :

الاصل في الخبر ان يلقى لغرضين :

(الاول) افادة المخاطب الحكم الذى تضمنته الجملة ، نحو ٠ كان عمر بن عبد العزيز اعدل خلفاء بنى امية ، تقوله لمن لا يعرف ذلك ، ويسمى هذا الغرض (فائدة الخبر) ٠ (الثاني) افادة المخاطب ان المتكلم عالم بالحكم كقولك لصاحبك : « انت القيت قصيدة جيدة في المذياع امس ، تدله على انك عالم بهذا الأمر ، ويسمى هذا الغرض (لازم الفائدة) ٠

الاغراض التي يخرج اليها الأسلوب الخبري :

نرى في الكلام العربي اخبارا كثيرة لا يقصد بها افادة المخاطب الحكم ، ولا أن المتكلم عالم به ، فتكون قد خرجت عن معناها الأصلي السالف ذكره الى اغراض أخرى.ومن أشهر هذه الأغراض :

١ ــ **الاسترحام** : نحو رب اني فقير الى رحمتك ، فليس الغرض هنا افادة الحكم ولا لازم الفائدة ، لأن الله تعالى عليم بهما ، ولكنه طلب رحمة الله تعالى ٠

٢ ــ التحسر على شيء محبوب ، كالتحسر على فقد الشباب في قول الشاعر :

ذهب الشباب فما له من عودة

وأتى المشيب فأين منه المهرب ؟

أو على فقد عزيز ، كقول اعرابي يرثي ابنه :

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى

أجاب الأسى طوعا ولم يجب الصبر

فان ينقطع منك الرجاء فانه

سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

وكقول اعرابية ترثي زوجها :

كنا كغصنين في جرثومة بسقا
حينا على خير ماتنمي بهالشجر

حتى اذا قيل قد طالت فروعهما
وطاب قنواهما واستنطر الثمر

اخنى على واحد ريب الزمان وما
يبقى الزمان على شيء ولا يذر

كنا كانجم ليل بينها قمر
يجلو الدجىفهوى من بينهاالقمر

٣ ــ الفخر ، كقول جرير يهجو الاخطل التغلبي :

ان الذى حرم المكارم تغلبا
جعل النبوة والخلافة فينا

مضر ابي وابو الملوك فهل لكم
يا خزر تغلب من اب كابينا ؟

٤ ــ الارشاد والنصح ، واكثر الاخبار الحكمية مما يكون لهذا الغرض كقول زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

وقول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق اخا لا تلمه
على شعث اى الرجال المهذب ؟

٥ ــ المدح ، ومن امثلة ذلك قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر :

فانك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقد يجيء لاغراض اخرى . والمرجع في معرفة ذلك الى الذوق والعقل السليم .

المجاز العقلي والحقيقة العقلية :

تقول : شفى الله المريض ، فتجد الفعل قد أسند في الجملة الى فاعله الحقيقي ويسمى هذا الاسناد حقيقة عقلية ·· فاذا قلنا : شفى الطبيب المريض وجدنا ان الفعل قد أسند الى الطبيب ، وهو سبب من أسباب الشفاء ، فالفعل قد أسند هنا ، لا الى الفاعل الحقيقي ، بل الى السبب ، فنسمى مثل هذا الاسناد مجازا عقليا ·

ومن الحقيقة العقلية أن تقول : أهلك الله الناس بسبب حبهم للدرهم والدينار ، ومن المجاز العقلي أن تقول : أهلك الناس الدرهم والدينار ، « وما يهلكنا الا الدهر » ·

ومن الحقيقة العقلية كذلك : انبت الله النبات ، ومن المجاز العقلي : أنبت الربيع النبات ، أو انبت المطر النبات ·

ومن الحقيقة العقلية أن تقول : هزم الجيش العدو ، ومن المجاز العقلي : هزم القائد العدو ·

ومن المجاز العقلي قول الشاعر :

منع البقاء تصرف الشمس
وطلوعها من حيث لا تمسي

ومنه أيضا قول الشاعر :

فنام ليلي وتجلى همي

ومنه كذلك :

فشيب أيام الفراق مفارقي

ومنه :

ونمت وما ليل المطي بنائم (١)

ومنه :

فما ليل مظلوم كريم بنائم

---

(١) في نائم ضمير مستتر هو فاعل لاسم الفاعل ، ففي اسناد نائم الى فاعله ــ الضمير المستتر ــ مجاز عقلي ·

ومنـه :

وليـك عمـا ناب قومك نائم

ومنـه :

« وأخـرجت الأرض أثقـالها »

لأن الذي يخرج ذلك هو الله ..

ومنه قول أبي نواس :

يزيدك وجهـه حسـنا
اذا مـا زدته نظـرا

وقول الشاعر :

وصـيرني هـواك وبي
لحيني يضـرب المثـل

ومنـه :

جد جدك ، وجرى النهـر ،
« فما ربحت تجـارتهم » .

المسـند اليـه :

ما هو المسند اليه ؟

المسند اليه هو الركن الأهم في الجملة ، ويسمى محكوما عليه ، أو مخبرا عنه وهو :

الفاعل ، ونائب الفاعل ، والمبتـدأ ، واسم ان وأخواتهـا ، واسم كان وأخواتها ، والمفعول الأول لظن وأخواتها ... والمسند اليه اذا حذف من الجملة فلداع بلاغي ، واذا ذكر في الجملة فلداع بلاغي كذلك اقتضى ذكره ، وكذلك اذا جيء به معرفة أو جيء به نكرة ، الى غير ذلك من شتى أحواله .

فمن تأخير المسند اليه : له الملك (١) ، وله الحمد » و « لله الأمر من قبل

---

(١) الملك مبتدأ ، وقد أخر في الجملة ، فجاء بعد خبره (له) .

ومن بعد » ، ومنه كذلك :

وكالنــــار الحيــــاة ، فمن رماد

أواخـرها ، وأولهــا دخــــان

ومن حذف المسند اليه قول الشاعر :

فتى غير محجوب الغنى عنصديقه

ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

والتقدير : هو فتى : فحذف المسند اليه (هو) الواقع مبدأ ·

المســـند :

ما هو المسند ؟

المسند هو الركن الثاني في الجملة ، ويسمى محـكوما به ، أو مخبـرا به ، وهو الفعل ، وخبر المبتدأ ، وخبر كان وأخواتها ، والمبتدأ المكتفي بمرفوعه ، واسم الفعل ·

والمسند قد يذكر في الجملة ، وقد يحذف ، وقد يقدم ، وقد يؤخر ، وقد يؤتى به اسما ، وقد يؤتى به فعلا ، وقد يكون مقيدا بقيد ، وقد لا يقيد بقيد ·

فمن ذكر المسند :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، اذ هذه الجملة واقعة خبر المبتدأ الذي هو « دفع » ، وقد ذكر الخبر ولم يحذف ·

ومن حذف المسند قوله تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والـذين لا يعلمون » ، اذ المعنى هل يستوي من له علم ومن لا علم له ، ولذلك حذف مفعول يعلمون لصرف النظر عنه ·

ومن تقديم المسند قوله تعالى : « لله الأمر » ، وقول الشاعر :

ثلاثة تشرق الدنيــــــا ببهجتهــــــا

شمس الضحى ، وأبو اسحاق ، والقمر

ومن تأخيره : محمد نال جائزة ، والقمر أشرق بنوره في السماء ، الى غير ذلك من شتى أحوال المسند ·

متعلقـــات الفعـــل :

ما هي متعلقات الفعل ؟

هي ماعدا المسند اليه والمسند في الجملة مما يزيد على ذلك ، فهو قيد في الجملة ، كأدوات الشرط ، والنفي ، والنواسخ والمفعولات ، والحال ، والتمييز، والتوابع ، وضمير الفصل ، وسوى ذلك ··· وهذه القيود هي التي تسمى متعلقات الفعل ·

ومتعلقات الفعل قد تذكر في الكلام ، وقد تحذف ، وقد تقدم وقد تؤخر ، وهذه هي أحوال متعلقات الفعل ، التي يبحث عنها البليغ في علم المعاني ·

فمن تقديم متعلقات الفعل قول الشاعر :

الى الله أشـــكو ان بالنفس حاجة
تمر بهـــا الأيام وهي كما هيـا

ومن تأخير متعلقات الفعل : أسافر في القطار ؟

وأحوال متعلقات الفعل كثيرة ، وهي موضع عناية البليغ وبحثه ، حين يدرس علم المعاني ·

أسلوب القصر :

تقول : يفوز المجد ، فيفيد الكلام هذا الحكم ، دون تأكيد له ، ودون أن تقصر الفوز على المجد ، فاذا قلنا ، لا يفوز الا المجد ، كنا قد أخذنا تخصيص الفوز بالمجد ، بمعنى أن الفوز خاص به لا يتعداه الى غيره وهذا هو أسلوب القصر ، فالفوز هنا مقصور على المجد ، فالفوز مقصور ، والمجد مقصور عليه ، وأداة القصر هي النفي « لا » والاستثناء « الا » والقصر هنا قصر صفة على موصوف ·

وكذلك تقول « انما محمد شاعر » فيفيد الأسلوب قصر محمد على الشعر ، بمعنى انه لا يتجاوز الشعر الى غيره من الصفات ، فمحمد مقصور وشـاعر مقصور عليه ، وأداة القصر هي « انما » ·

ومثل هذا : على الله اتوكل ، والى الله أمرى ٠٠ فتقديم الخبر هنا يفيد القصر ، فالمثال الأول فيه قصر موصوف وهو « التوكل » على صفة وهى كون التوكل على الله لا على غيره ، وطريق القصر التقديم ، وكذلك المثال الثانى ٠

الفصل والوصل :

تقول : نجح محمد ، فاز على ، فتأتى بالجمل مفصولا بعضها عن بعض وغير معطوفة بعاطف ، ويسمى ترك العطف بينها فصلا ٠٠ ومثل ذلك أيضا : اجتهد على ، تفوق محمود ٠

وتقول : اجتهد محمد ففاز ، أو ثم فاز ، أو حتى فاز ، فيجوز ذلك متى كانت الجملة الثانية مرتبة على الأولى بلا تراخ ، أو مع التراخى ، أو على سبيل التدريج ، ويسمى ذلك وصلا بغير الواو ٠

وتقول : حضر على ، وسافر أخوه ، فتعطف بعض الجمل على بعض بحرف عطف هو الواو ، ويسمى ذلك وصلا ٠

فالوصل عطف بعض الجمل على بعض بالواو ، والفصل تركه ٠

ولابد لصحة العطف بالواو من وجود جهة جامعة بين أجزاء الجمل المتعاطفة ، وفى القرآن الكريم : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » ، (ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى » ٠

الإيجاز والإطناب والمساواة :

اذا أردت أن تتحدث الى الناس فى معنى من المعانى فانت تعبر عنه تعبيرا صحيحا مقبولا فى صور ثلاث ، وهى :

١ ــ المساواة : وهى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى ٠

٢ ــ الإيجاز : وهو وضع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة وافية بها ، والا كان اخلالا ٠ فلا يعد الكلام صحيحا مقبولا ٠

٣ ــ الإطناب : وهو تأدية المعنى بألفاظ أكثر منه لفائدة ، فان لم تكن الزيادة لفائدة فهى حشو أو تطويل ٠

وفى كتاب الله الكريم معان كثيرة عبر عنهـا بهـذه الصور الثـلاث فى مواضع مختلفة منه ، لأن المقام فى كل موضع يناسبه صورة منها ·

فمن ذلك الدلالة على « ان كل انسان مجزى بعمله ، ان خيرا فخيـر ، وان شرا فشر » فقد عبر عن هذا المعنى فى هـذه الصور فى الآيات الكريمـة التالية :

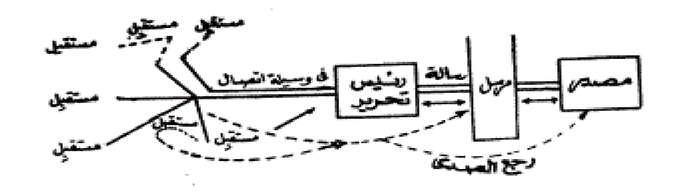
١ ـ فمن المساواة قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره · ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ·

٢ ـ ومن الايجاز قوله تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين » ·

٣ ـ ومن الاطناب قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظـالمين نارا أحاط بهم سرادقهـا وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت متفقا · ان الـذين امنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، اولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سـندس واستبرق متكئين فيهـا على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » ·

ولا يعد الكلام فى صورة من هذه الصور بليغا الا اذا كان مطابقا لمقتضى المقتضى الحال ، فان كان المقام للاطناب مثلا وعدلت عنه الى الايجاز والمساواة لم يكن كلامك بليغا ·

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال فى البلاغة الجديدة ترتبط بمتغيرات عديدة تشمل المستقبل ووسيلة الاتصال ورجع الصدى :



الباب السادس

البيـــــان

البيـــــان

التعبير الجميل البليغ المؤثر ، الذى يصور المعنى تصويرا واضحا من اقرب طريق ، هو البيان ٠

وعناصر البيان البليغ هى : الأسلوب ، والمعنى ، ووضوح الأداء ، وقوة التاثير :

فالأسلوب هو طريقة تاليف الكلمات ونظمها لتؤدى المعنى المراد تصويره والابانة عنه ٠

والمعنى هو الفـكرة التى يريد الأديب أو الشـــاعر تصويرها وأداءها والترجمة عنها ليفهمها القارىء والسامع ٠

ووضوح الأداء من أخص خصائص البيان ، ونريد به أن يكون الأسلوب ظاهر الابانة عن المعانى التى يريدها البليغ دون تعقيد أو التواء ٠

وقوة التاثير نقصـد بهـا أن يترك الأسلوب أثره فى نفوس القـــارئين والسامعين وأن يدفع من يقرؤه أو يسمعه الى الايمان بما آمن به البليغ من فكرة أو رأى أو عقيدة :

وان شئت فاقرأ قول المعرى :

غير مجـــد فى ملتى واعتقــــادى
نــــوح باك ولا تـرنم شـــــاد

أو قول شوقى :

قف دون رأيك فى الحيـاة مجاهدا
ان الحيـــاة عقيـــدة وجهــــاد

أو قول المتنبى :

أنا الذى نظـــر الأعمى الى أدبى
واســـمعت كلمــاتى من به صمم

او قول حسان :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هو السعيد

فسترى من روعة التأثير وقوة العاطفة وتدفق البيان ما يجعلك تفهم ما تعنيه بقوة التأثير ٠

علم البيـــان :

التعبير عن المعنى الواحد باساليب مختلفة وضوحا وخفاء ٠

* * *

امثلة وموازنات :

١ ــ يقول البحترى يصور عناقه لمحبوبته :

ولم أنس ليلتنا فى العناق
لف الصبا بقضيب قضيبا (١)

ويقول ابن المعتز فى هذا المعنى :

فلو ترانا فى قميص الدجى
حسبتنا فى جسد واحد

فنجد أن :

(أ) البحترى يمثل عناقه لمحبوبته فى ليلة جميلة كأنهما الريح تلف غصنا على غصن ٠٠ وابن المعتز يقول انه هو ومحبوبته يتعانقان كأنهما روحان فى جسد واحد ٠ والدجى يلفهما فى قميصه ٠٠ فمعنى البحترى مألوف ٠ ومعنى ابن المعتز فيه لون من المبالغة ٠

(ب) واسلوب ابن المعتز أجمل فى الفاظه وروحه من أسلوب البحترى ٠

(ج) ويزيد ابن المعتز بهذا التعبير البليغ عن ظلام الليل الذى يشمل الكون بقوله قميص الدجى ٠

---

(١) الصبا : ريح تهب من جهة الشمال ، وهى من أطيب الرياح ٠ القضيب الغصن ٠

٢ ـ ويقول أبو نواس فى كأس الخمر :

اذا عب فيها شارب القــــوم خلته
يقبل فى داج من الليــــل كوكبــــا

ويقول ابن الرومى :

فكأنهــــــا وكأن شاربهــــــــا
قمــــــر يقبــــــل عارض الشمس

ويقول ابن المعتز :

وكأنه وكأن الكأس فى فمــــــه
هلال أول شـــــهر غاب فى شفق

هؤلاء الشــعراء يصــورون الكأس وهى على فم الشارب للخمر فجعــل أبو نواس الكأس شبيهة بالكواكب والخمر التى فى الكأس شبيهة فى لونهــا بدجى الليل وظلمته • وجعل ابن الرومى الكأس شبيهة بالقمر والخمر التى فيها شبيهة بضوء الشمس • وجعل ابن المعتز الكأس شبيهة بالهلال وما فى الكأس شبيه بلون الشفق • ولكن ابن المعتز يمتاز عن صاحبيه بروعة التاثير وقــوة التصوير والاداء •

٣ ـ وهكذا تستطيع ان توازن بين هذه الابيــات :

كلمنى لحظــــــك عــن كل مــا
أضـــمره قلبــك من غـــدر

امــا تقـــــــرأ فى عينـــــــ
ـــى عنـــــوان الــــذى اخفى

تخفى العـــداوة وهى غير خفيــة
نظــر العـــدو بمــا أسر يبـــوح

٤ ـ وكذلك تستطيع ان توازن بين هذه الاساليب :

قال اديب ينصح ابنه : لا تلتمس الزيادة من صاحب المعروف قبل ان تقوم بشكر ما اوتيته منـــه •

وقال احد الكتاب فى هذا المعنى : فى شكر ما تقدم من احسان الامير شاغل عن استبطاء ما تأخر منه ·

وقال ابو نواس فى المعنى نفسه :

لا تسدين (١) الى عارفة
حتى اقوم بشكر ما سلفا

٥ ــ ويقول الاديب : القائد بطل شجاع ، وهو كالاسد شجاعة ، وهو الاسد ، ورايت اسدا فى الميدان يهزم الاعداء ·

القاعدة :

١ ــ الادباء يختلفون فى تصوير المعانى وادائها ، واذا كانت هذه المعانى واحدة فما بالك بها اذا اختلفت ، والاساليب السابقة تشترك فى الجمال ، وتختلف فى الوضوح ، والتاثير ، وطريقة عرض المعنى وقوة تقريره ·

٢ ــ وهذه الاساليب المختلفة فى الوضوح والتى يؤدى بها المعنى الواحد هى موضوع علم يسمى علم البيان ، فهو العلم الذى يعرف به طريقة اداء المعنى الواحد باساليب مختلفة فى الوضوح ·

٣ ــ والذوق الادبى الذى تكتسبه من قراءة الادب هو الذى يساعدك على فهم الاساليب والموازنة بينها ، ويعينك على دراسة هذا العلم ·

بحوث علم البيان :

وتتلخص بحوث علم البيان فى : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ·
وسر هذا ان اللفظ المراد به لازم ما وضع له : ان قامت قرينة على عدم ارادة ما وضع له فمجاز ، والا فكناية ، ثم من المجاز ما ينبنى على التشبيه وهو الاستعارة التى كان اصلها التشبيه ، فتعين دراسة التشبيه قبل بحث المجاز الذى من اقسامه الاستعارة المبنية على التشبيه ، ولما كان فى التشبيه بلاغة وجمالا مع كثرة مباحثه ، وتعدد فوائده ، لم يجعل مقدمة لبحث الاستعارة بل جعل مقصدا براسه ، فانحصر المقصود من علم البيان فى الثلاثة ابواب : التشبيه ــ المجاز ــ الكناية ·

---

(١) تسدى : تعطى وتمنح · العارفة : المعروف ·

التشبيه

امثلة :

١ ـ هو كالبدر فى الرفعة ٠

٢ ـ ذلك القائد كالأسد شجاعة ٠

٣ ـ تلك الفتاة كالقمر جمالا ٠

٤ ـ وقال الشاعر :

انت كالبحر فى السماحة(١) والشمـ
ـس علوا ، والبدر فى الاشراق

٥ ـ وقال البحترى :

هو بحر السماح والجود فازدد
منه قربا تزدد من الفقر بعدا

هذه الأساليب كلها من اساليب التشبيه :

ففى الأول شبهت هذا الرجل العظيم بالبدر ، ووجه الشبه بينهما الرفعة
وفى الثانى : شبهت القائد بالأسد ٠ ووجه الشبه بينهما الشجاعة ٠

وفى الثالث : شبهت الفتاة بالقمر ، ووجه الشبه بينهما الجمال ٠

وفى الرابع : شبهت الممدوح بالبحر فى السماحة ، وبالشمس فى العلو ، وبالبدر فى الضياء ٠

وفى الخامس شبهت الممدوح بالبحر ، ووجه الشبه بينهما الكرم والجود ٠

القاعدة :

التشبيه : هو الحاق امر بأمر فى معنى بأداة لغرض يقصده المتكلم ، أو قل : هو عقد مماثلة بين امرين قصد اشراكهما فى صفة او اكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم ٠

---

(١) السماحة : الجود ، وكذلك السماح ٠

اركان التشـــبيه :

واركان التشبيه أربعـــة :

١ ـ المشبه : وهو الأمر الذى تثبت الصـــفة له كخـــالد فى قولك خالد كالاسد شجاعة وكليلى فى قولك ليلى كالبدر جمالا ٠

٢ ـ المشبه به : وهو الأمر الذى وضحت فيه الصفة ، كالاسد والبدر فى المثالين السابقين ٠ هذا ويسمى المشبه والمشبه به طرفا التشبيه ٠

٣ ـ وجه الشبه : وهو الصفة أو الصفات التى قصد اثباتها للمشـــبه كالشجاعة والجمال فى المثالين السابقين ٠

٤ ـ أداة التشبيه : وهى الكلمة التى تفيد المشابهة كالكاف فى الأمثلة السابقة ، ومن أدوات التشبيه : الكاف ٠ وكأن ، مثل : كأن القائد أســـد ٠ ومثل : هو مثل الأسد ، وشبه ، وشابه ، وحاكى ، وماثل ، ويضـــارع ، وسواها من الالفاظ التى تدل على المماثلة ٠ والكاف وكأن أكثر هذه الأدوات ٠

الفرق بين الكاف وكأن :

محمد كالسحاب فى الكرم ٠

كأن محمدا السحاب المنهمر ٠

من المثالين نعرف الفرق بين الكاف وكأن وخلاصة الفرق هو ان الكاف يأتى بعدها المشبه به ٠ وكأن يأتى بعدها المشبه ٠

ملاحظـــة :

يجــوز فى التشـــبيه :

١ ـ حذف الاداة ٠ فتقول محمد أسد فى الشجاعة ٠

٢ ـ حذف الوجه ٠ فتقول محمد كالأسد ٠

٣ ـ حذف الوجه والاداة معا فتقول محمد أسد ، ويسمى ذلك تشبيها بليغـــا ٠

أغـراض التشـبيه :

وللتشبيه أغراض كثيرة منها :

١ ـ بيان حال المشبه فيما اذا كان المشبه به معروفا والمشبه مجهـولا أو في حكم المجهول مثل : الأرض كالكرة ، وقول النابغة :

كأنـك شـمس والملـوك كواكب
اذا طلعت لم يبـد منهـن كوكب

وقول المتنبي :

أرى كل ذي جـود اليك مصـيره
كأنك بحـر والملوك جـداول

٢ ـ بيان مقدار حال المشبه اذا كانت الصفة المراد اثباتها للمشبه معروفة بوجه اجمالي . ولكن التشبيه يبين مقدارها مثل : هذه الفاكهة حلوة كالسكر . وهذا الثوب ابيض كالقطن أو اللبن أو الثلج . وقول الجارم :

لـك سـيرة كصـحيفة ال
أبـرار طـاهرة نقيـة

وقال المتنبي في المدح :

كالبحـر يقذف للقـريب جـواهرا
جودا ، ويبعث للبعيـد سـحائبا

وقـول الشـاعر :

كم نعمـة مـرت بنـا وكأنهـا
فـرس يهـرول أو نسـيم سـاري

٣ ـ تقرير حال المشبه في ذهن السـامع . وذلك اذا كان المشـبه أمـرا غريبـا يحتاج الى ايضاحه وتثبيته . ويكثر ذلك في تشبيه الأمور المعنـوية بأمـور تدرك بالحس ، مثل التعـليم في الصغر كالنقش في الحجر .

وقول الشاعر :

ان القـلوب اذا تنـافر ودهـا
مثل الزجـاجة كسرها لا يجـبر

وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » .

٤ ـ تزيين المشبه : مثل « هى كالظبى النافر » وقول الشاعر :

سـوداء واضـحة الجبين

كمقـلة الظـبى الغـرير

٥ ـ تقبيح المشبه : مثل : صوته كالرعد ، وهو كالقرد ، وقوله تعالى : فمثله كمثل الكلب .

٦ ـ بيان امكان المشبه : وذلك حين يكون المشـبه قـد اسند اليه امـر مستغرب فتاتى بشبيه له لتدفع هذه الغرابة عن المشبه ، كقول الشاعر :

فـان تفق الانـام وانت منهم

فان المسـك بعض دم الغـزال (١)

ومثل قول البحترى :

دنوت تواضـعا وعلوت مجـدا

فشأناك انخفـاض وارتفـاع

كذاك الشـمس تبعـد أن تسـامى

ويدنو الضـوء منهـا والشعاع

صـور التشـبيه :

التشـبيه والاداة :

١ ـ قال الشـاعر :

تحطمنـا الايـام حتى كاننـا

زجـاج ولكن لايعاد له سـبك

---

(١) معنى البيت : هو فاق الناس مع انه منهم ، كالمسك الذى فاق الدماء مع أنه من بعض انـواع الدماء .

٢ ـ وقال شاعر :

هو بدر في شهرة الذكر والمجـ
ـد وفي الجود والسماح السحاب

البيت الأول أداة التشبيه فيه مذكورة وهي كان : والثاني أداة التشبيه فيه محذوفة ، والأصل هو كالبدر وهو كالسحاب :

الخلاصة :

أداة التشبيه قد تذكر وقد تحذف .

التشبيه والوجه :

١ ـ هو كالشمس في العظمة .

٢ ـ هو كالشمس وكالأسد .

المثال الأول وجه التشبيه فيه مذكور وهو : العظمة .

والمثال الثاني وجه التشبيه فيه محذوف وهو : العظمة والبطولة .

الخلاصة :

قد يذكر وجه التشبيه وقد يحذف (١) .

التشبيه البليغ :

١ ـ التشبيه البليغ هو ما حذف الوجه فيه والاداة معا ، مثل : ليلى قمر ومحمد أسد ، وخالد بحر ، ومثل قول الشاعر :

فالعيش نوم والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال سار

---

(١) والتشبيه الذى ذكر فيه الوجه يسمى مفصل والتشبيه الذى حذف وجهه يسمى مجملا .

٢ ــ ومن أنواع التشبيه البليغ ما أضيف فيه المشبه به الى المشبه مثل : رداء العافية ، وقميص الدجى ، ومصباح الرأى ، وثوب الرياء ، وذهب الأصيل · ولجين (١) الماء ، قال الشاعر :

والريح تعبث بالغصون ، وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء (٢)

٣ ــ ومن أنواعه أيضا أن يكون المشبه به مصدرا مبينا للنوع مثل ، أقدم اقدام الأسد أى أقدم اقداما كاقدام الأسد · ومثل : له هيبة الملوك واجتهد اجتهاد المبرزين ، وفاضت يداه بالجود فيض السحاب · ومكر مكر الذئب ·

تشبيه التمثيل :

أمثلة :

١ ــ قال المتنبى :

يهز الجيش حوله جانبيه
كما هزت جناحيها العقاب

مثل سيف الدولة والجيش يتحرك فى نظام حواليه ممتثلا لأمره لا يخالفه ، بهيئة الطائر العقاب وسلطانه النافذ على جناحيه ·

٢ ــ وقال بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

يمثل الغبار الذى حجب الشمس ونشر الظلام والسيوف تلمع خلال المعركة بالليل الذى تتساقط كواكبه ·

---

(١) اللجين : الفضة ·

(٢) وتقدير التشبيه : شعاع الشمس فى الأصيل كالذهب ، والماء كالفضة ·

وقال آخر :

كأن سواد الليل والفجر ضاحك
يلوح ويخفى ، أسود يتبسم

يمثل ظلام الليل والفجر قد بدا فى الظهور بسواد وجه العبد الأسود الذى تلمع أسنانه أثناء تبسمه وضحكه • وكل هذه التشبيهات وما ماثلها تسمى تشبيه التمثيل لأن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أمور متعددة •

القاعدة :

تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أمور متعددة

أمثلة للتشبيه وتحليلها :

١ ـ قال الشاعر :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا
أن يرى النور فى القضيب الرطيب

يشبه ظهور الشيب فى الشبان بظهور الزهر الابيض فى الغصن الرطيب ، وليس فى الكلام أسلوب التشبيه الصريح ، ولكن التشبيه هنا ضمنى •

٢ ـ سيذكرنى قومى اذا جد جدهم
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

يشبه معرفة قومه لقيمته فى الشدائد بمعرفة المسافر لقيمة البدر فى الليلة الظلماء والتشبيه هنا ضمنى أيضا •

٣ ـ فاح الزهر كأنه ذكرك الجميل ، الهزار يغنى كأنه أم كلثوم •

هنا تشبيهان أداة التشبيه مذكورة فيهما ، ولكن التشبيه مقلوب والأصل : ذكرك الجميل يفوح كالزهر ، وأم كلثوم كالهزار •

٤ ـ وقال شوقى :

فدخلت فى ليلين : فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

المجـــاز :

المجاز في اللغة : مفعل من « جاز المكان يجوزه اذا تعداه ، نقل الى الكلمة الجائزة ، اى المتعدية مكانها الأصلى ، او المجوز بهـا ، على معنى انهم جازوا بها وعدوها مكانها الأصلى ٠

والمجاز قسمان : مفرد ومركب فالمفرد : هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت لـه فى اصطلاح التخـاطب على وجه يصح ، مع قرينة عدم ارادة الموضوع له ، وعلى وجه يصح يشير الى ضرورة العلاقة ليتحقق الاسـتعمال على وجـه يصح ٠

وينقسم المجاز المفرد الى قسمين :

١ ــ القسم الأول هو المجاز المرسل : وذلك ما كانت العلاقة المصححة فيه ليست هى المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى ٠

والقسم الثاني الاستعارة ، وهى ما كانت العلاقة فيه المشابهة ٠

المجـاز المرسـل وامثـلة له

فالمجاز المرسل : هو ما كانت العلاقة فيه بين المعنى الموضوع له والمعنى المستعمل فيه غير المشابهة ٠

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة منها :

١ ــ تسمية الشيء باسم كله كقوله تعالى : « **يجعـلون اصـابعهم فى اذانهم** » اذا الاصبع لا تدخل فى الاذن ، والمراد من الاصابع هنا الا نامل ، اى يجعلون انامليم فيها ، ففى اصابعهم مجاز مرسل علاقته : الكلية والجزئية :

٢ ــ تسمية الشيء باسم جزئه كتسمية الرقيب عينا ، تقول : الحـكومة لها عيون ساهرة على الأمن ، فعيون مجاز مرسل علاقته : الجزئية والكلية ٠

٣ ــ تسمية الشيء باسم سببه مثل « رعينا الغيث » ، اذ الغيث لا يرعى ٠ وانما يرعى النبات ، وفى الغيث مجاز مرسل علاقته السببيه ، والمراد به النبات الذى سبب نموه الغيث اى المطر ٠

٤ ــ تسمية الشيء باسم مسببه مثل : « امطرت السماء نباتا » اى غيثـا يكون النبات مسـببا عنه ٠

٥ ـ تسمية الشيء باسم الشيء الذى كان هو عليه فى الزمان الماضى مثل : « وآتوا اليتامى اموالهم » ، اى الذين كانوا يتامى فى الماضى اذ لا يتم بعد البلوغ .

٦ ـ تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه ذلك الشيء فى المستقبل مثل « انى اراني اعصر خمرا » ، اى عنبا يؤول الى الخمر .

٧ ـ تسمية الشيء باسم محله مثل « فليدع ناديه » اى أهل ناديه الذين يحلون فيه ، والنادى المجلس .

٨ ـ تسمية الشيء باسم آلته مثل : واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، اى ذكرا حسنا ، واللسان اسم لآلة الذكر .

* * *

الاستعارة :

امثلة :

١ ـ ضحكت الازهار : اى تفتحت . شبه تفتح الازهار بالضحك .

٢ ـ تبسم الفجر . اى ظهر ، شبه ظهوره بالتبسم .

٣ ـ كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور اى من الضلال الى الهدى ، شبه الضلال بالظلمات والهدى بالنور .

٤ ـ طغى الماء : اى زاد . شبه زيادته بالطغيان .

٥ ـ اسقم قلبى بدر فى الطرف منه سحر .
اى امرأة جميلة شبيهة بالبدر .

٦ ـ فتى كلما فاضت عيون قبيلة ضحكت عنه الاحاديث والذكر .
يريد ظهرت احاديث بطولته ، شبه ظهورها بالضحك .

التحليل :

كل لفظ من الالفاظ التى تحتها خط فى الامثلة السابقة لم يستعمل فى معناه الاصلى ، وانما استعمل ليدل على معنى اخر بينه وبين المعنى الاصلى مشابهة ، والمانع لأن يكون اللفظ مرادا به معناه الأصلى هو القرائن الدالة على ان المراد به غير معناه ، وهى فى المثال الأول ان الازهار لا تضحك وفى الثانى ان الفجر لا يبسم وهكذا ، فيسمى كل لفظ من هذه الالفاظ استعارة .

القــــاعدة :

الاستعارة : لفظ استعمل فى غير المعنى الذى وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنيين مع وجود قرينة تمنع من ان يكون المراد هو المعنى الأصلى ٠

العـلاقة بين الاســـتعارة والتشــبيه

١ ــ تقول : القائد كالاسد فى شجاعته ، ثم تبالغ فتقول : هو الاسـد ، ثم تبالغ فتقول : قـاد الاسـد الجيش فى المعركة فيكون الاسد استعارة ٠ ومن هنا تدرك ان الاستعارة اصلها التشبيه ٠

٢ ــ وانظر فى المثلين الآتيين :

قبلت بدرا منيرا ــ اى فتاة كالبدر فى الجمال ٠

نستضىء فى الحوادث برايك . تشبه الراى بالقمر مثلا فى الهداية ٠

تجد ان اسلوب الاستعارة فيهما اصـلة تشبيه الا انه محـذوف الاداة والوجه واحد طرفى التشبيه ٠

(وفى الأول حذف المشبه ، وفى الثانى حذف المشبه به) (١) ٠

القــاعدة :

١ ــ الاستعارة نوع من التشبيه حذفت فيه الاداة والوجه واحد الطرفين٠

٢ ــ الاســتعارة ابـلغ من التشــبيه لـما فيها من مبالغة فى اداء المعنى وتصويره ٠

الاستعارة التمثيلية او الاستعارة فى المركب :

(١) تقول للرجل الذى يقدم الاساءة وينتظر عليها الاحسان انت كمن يريد ان يجنى من الشوك العنب ، فتجـد تشبيها مركبا اذ شبه حال الرجل الذى يقدم الاساءة وينتظر عليها الاحسان بحال من يزرع الشوك وينتظر ان يجنى منه عنبا ، فاذا بالغت فىالأسلوب قلت «انت لاتجنى من الشوك العنب ، فتحذف

---

(١) الاستعارة التى حذف فيها المشبه وبقى المشبه به تسمى تصريحية ٠ والاستعارة التى حذف فيها المشبه به وبقى المشبه تسمى مكنية ٠

من اسلوب التشبيه المشبه والاداة وتكتفي بالمشبه به فيكون الاسلوب استعارة مركبة او استعارة تمثيلية ٠

(ب) والامثلة الآتيـة كلها من باب الاستعارة المركبة :

١ ــ انى اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، تقوله للمتردد ٠

٢ ــ وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر ، تقوله للعظيم يموت حين حاجة الناس اليـه ٠

٣ ــ انت ترسم على الماء ، تقوله لمن يعمل عملا لا نتيجة له ٠

٤ ــ رمى عصفورين بحجر ، تقوله لمن ادرك هدفين بمسعى واحد ٠

٥ ــ وضع الحق فى نصابه ، تقوله حين تجد امرا قد وضع فى محله ٠

٦ ــ ولابد دون الشهد من ابر النحـل ٠

القـــــاعدة :

١ ــ الاستعارة التمثيلية او المركبة : تركيب استعمل فى غير ما وضـــع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من ارادة معناه الاصلى ٠

٢ ــ الامثال التى تقال فى مقام الاستشهاد بها هى من باب الاســتعارة التمثيلية ٠

* * *

الكنـــــاية :

امثـــــلة :

١ ــ يعض الظالم على يديه : تكنى بذلك عن ندمه ٠

٢ ــ تثـاءب الجمهـور ٠
تكنى بذلك عن سأمهم من كلام الخطيب

٣ ــ محمود نقى الثوب : تكنى به عن طهارته وعفته ٠

٤ ــ ارغى المدير وازبد : تكنى بذلك عن تهديده ٠

٥ ــ نصبوا بقارعة الطريق خيامهم ٠
يتســابقون الى قـرى الاضياف

كناية عن كرم هؤلاء الناس ٠

٦ ـ خطرات النسيم تجرح خديه : ولمس الحرير يدمي بنانه ٠
كناية عن رقة خدود هذه المرأة وترفها ٠

٧ ـ المجد عوفي اذ عوفيت والكرم
وزال عنك الى اعدائك السقم
كناية عن عظمة هذا الرجل ومجده ٠

٨ ـ قلب الرجل كفيه على ما قدم من اعمال : كناية عن الندم ٠

كل اسلوب من هذه الأساليب كناية ، حيث لم يعبر عن المعنى نفسه باللفظ الدال عليه في اللغة ، بل ذكر شيئا لازما لهذا المعنى : كعض اليدين أو تقليب الكفين اللازم للندم ، وكالتثاؤب للسآمة ، وهكذا نفهم من ذكر هذا اللازم الغرض المقصود والمعنى المراد ٠

القـــاعدة :

١ ـ الكناية : التعبير بلازم المعنى المراد اداؤه ، ليفهم بذكر هذا اللازم المعنى المراد نفسه ٠

أول قل هي تأدية المعنى بذكر لازم من لوازمه ٠

اغراض الكنـاية وبلاغتهـا :

تستعمل الكناية لتحقيق الاغراض الآتية :

١ ـ تأكيد المعنى بتصويره تصويرا واضحا مصحوبا بما يؤيده ، وذلك كناية عن الندم بعض الانامل وعن الحزن بتقطيب الجبين ٠

٢ ـ تهجين الشيء والتنفير منه ، كما في قوله تعالى في التنفير من البخل وتهجينـه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » ٠

٣ ـ تحسين المعنى وتجميله مع اخفاء الأمر على المخاطبين ، كقولك في رجل لا يجيد الشعر : « هو نبي الشعر » تكني به عن عدم اجادته للشـعر لقول الله تعالى في نبيه : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ٠

٤ ـ التعبير عن الشيء بلفظ جميل بدل اللفظ المستهجن الموضـوع له ، كالكناية عن الصمم بثقل السمع وعن العمى باستمرار لبس النظارة ٠

انواع الكنـــاية :

الكناية ثلاثة انواع :

١ ـ كناية عن موصوف مثل :

مدينة النور كناية عن باريس ، ومثل :

سكان الخيام كناية عن البدو .

الحوت الحديدى كناية عن الغواصة .

ابناء النيل ، كناية عن المصريين .

٢ ـ كناية عن صفة مثل :

يفترش الغبراء ، كناية عن الفقر .

عض على يديه ، كناية عن الندم .

هو لا يعرفه أحد ، كناية عن الخمول .

القى عصاه : كناية عن الاقامة .

صفر اليدين : كناية عن الفقر .

هو ربيب أبى الهول ، كناية عن الصمت وكتمان السر .

يصعر خده للناس ، كناية عن الكبر .

٣ ـ كناية عن نسبة صفة لموصوف ، بأن تذكر الصفة وتكون الكناية فى نسبتها الى الموصوف مثل :

اليمن يتبـــع ظـــله   والمجد يمشى فى ركابه

الغنى ملء اثوابه .

فى بيته الكرم والمعروف .

القى العز رحاله فى منزل هذا الرجل .

يسير الخير حيث تسير .

★ ★ ★

الفرق بين التشبيه والمجاز والكناية :

١ ـ التشبيه من أساليب الحقيقة ، والمجاز لم يستعمل اللفظ فى معناه الحقيقى ، والاستعارة من أساليب المجاز ، والكناية وسط بين الحقيقة والمجاز لجواز ارادة المعنى الحقيقى والكنائى فيها ، فقولك « فلان نقى الثوب » تكنى به عن طهارته واستقامته ، وقد يكون مع ذلك نقى الملابس ايضا ٠

٢ ـ التشبيه فيه أداة للتشبيه ٠ والاستعارة لا اداة للتشبيه فيهـــا مع ملاحظة التشبيه ٠ والكناية بعيدة عن أسلوب التشبيه ٠

والمجاز معه قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ، وعلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ٠

٣ ـ والتشبيه : الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى من المعانى مثل محمد كالأسد ، أما المجاز : فهى نقل اللفظ من معناه الأصلى الذى وضع له الى معنى آخر بينـه وبين المعنى الأصلى ملابسة أو مشابهة لقصد المبـالغة ٠ مثل : رأيت أسدا ، وله عندى يد ٠

والكناية تأدية المعنى المراد بذكر لازم من لوازمه ٠ مثل الكرم فى أثوابه٠

الباب السابع

البـــديع

البديع

١ ــ قال الشاعر :

فأمامي المر من عمري
وورائي منه ما طابا

٢ ــ وقال ابن المعتز :

يا من عناني حسده يقيمه ويقعده

٣ ــ وقال تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » .

٤ ــ وقال :

يا دار يا دار أحزاني وأشجاني
أبلى جديد مغانيك الجديدان (١)

٥ ــ وقال :

أيا فتنة ما كنت منتظرا لها
أما لقتيل الهجر بالوصل من بعث

٦ ــ وتقول : يتعاقب الليل والنهار والضوء والظلام .

٧ ــ وتقول في الرجل الجبان : يأكل عيشه بجبنته .

التحليل :

١ ــ في هذه الأساليب البليغة جمال فني يشعر به ذوقك ومبعث هذا الجمال : لفظ حسن موقعه أو معنى بديع يزيد القول به حسنا .

---

(١) المغاني : جمع مغنى وهو منزل الاقامة . الجديدان : الليل والنهار .

٢ ــ وهذا الجمال الفنى الخاص الذى تراه بعد استيفاء الكلام لعناصر البلاغة يسمى بديعا · والعلم الذى يدرسه يسمى علم البديع ·

٣ ــ وكانت هذه الأساليب الجميلة البديعة تقع للكتاب والشعراء عفوا ، فلما جاء العصر العباسى فطن لها الادباء · وقصدوها فى كلامهم كبشار وابى نواس ومسلم وابى تمام ·

٤ ــ ثم جاء ابن المعتز فالف كتابا فى انواع البديع · ثم زاد فى الأنواع بعده : قدامة وابو هلال ·

والخلاصة : علم البديع هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح الدلالة على المعنى المراد ·

اقسام المحسنات البديعية :

١ ــ محسنات لفظية ترجع الى اللفظ ·

٢ ــ محسنات معنوية ترجع الى المعنى ·

فالفرق بين القسمين ان المحسنات اللفظية راجعة الى اللفظ ، اما المعنوية فيرجع تحسينها الى المعنى ·

المحسنات اللفظيــــة :

١ ــ الجنـــــاس :

١ ــ جار الجار على حقوقى ·

٢ ــ وسميته يحيى ليحيــــــا فلم يكن
الى رد امر الله فيــــه ســــبيل

٣ ــ فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر ·

٤ ــ بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
واعوان دهرى ان تظلمت من دهرى

فى كل مثــال من الأمثـلة السابقة الفاظ تتشابه فى النطق وتختلف فى المعنى فيسمى ذلك جناسا ·

فالجناس هو : تشابه اللفظين فى النطق واختلافهما فى المعنى ·

أنواع الجنـــاس :

(أ) جناس تام كما فى المثال الأول والثانى · ومثل قولك :

« يحار الطرف في محاسن هذا الطرف الجميل » (١) ·

(ب) جناس غير تام ، وهو أن يختلف اللفظان فى النطق بعض الاختلاف وذلك بأن يختلفا فى :

١ ـ حرف من حروف الكلمة مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « الخيل معقود بنواصيها الخير يوم القيامة » ، فقد اختلفا فى اللام والراء ، ومثل تقهر وتنهر فى المثال الثالث ، والهم والغم فى المثال الرابع ، ومثل مقر ومفر وتفرح وتمرح وأوطان وأوطار ·

٢ ـ أو فى عدد الحروف مثل :

الدار أعرفها ربى وربوعـــــــا
لكن أساء الزمان بهـــا صنيعا

ومثل قولك هذا بناء ناء ، وقال مقالا ، ومثل : الهوى والهوان وساه وساهر ، وكاف وكافل ، والقنا والقنابل ·

٣ ـ أو فى شكل الحروف مثل الجد فى الجد ، أى الحظ فى الاجتهاد ، ومثل الفلك والفلك وعبرة وعبرة ·

٤ ـ أو فى ترتيب الحروف مثل « أمل وألم ، وفتح وحتف ، ووعد وعود ، و « وعيد ووديع » ، ومبين ومنيب ، وسريع وسمير ، وكلام وكمال ، وصفائح وصحائف ·

شروط الجناس البليغ :

١ ـ أن يكون غير متكلف ·

٢ ـ وأن يطلبه المعنى ·

٣ ـ وأن تكون الكلمة التى فيها الجناس يطلبها الأسلوب والمقام ·

---

(١) الطرف بفتح الطاء : العين · والطرف بكسر الطاء : الفرس ·

الخلاصة :

١ ـ الجناس هو أن تتشابه الكلمتان فى النطق وتختلفا فى المعنى ·

٢ ـ الجناس التام هو ما تشابهت فيه الكلمتان في أربعة أمور : نوع الحروف وعددها وشكلها وترتيبها ·

٣ ـ الجناس غير التام : هو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر من الأربعة السابقة ·

امثلة للجناس :

١ ـ تعاهدتك العهاد يا طلل
حدث عن الظاعنين ما فعلوا

٢ ـ الم تحزن على الربع المحيل
واطلال واثار محول

٣ ـ طار نومي وعاود القلب عيد
وأبى لي الرقاد حزن شديد

٤ ـ اشكو واشكر فعله
فاعجب لشاك منه شاكر

٥ ـ ان الهوى لهو الهوان ·

٦ ـ لم الق غيرك انسانا الوذ به
فلا برحت لعين الدهر انسانا

٧ ـ والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق ·

٨ ـ من بحر جودك أغترف
وبفضل علمك أعترف

رد العجز على الصدر :

قال الله تعالى : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ·

وقال تعالى : « استغفروا ربكم انه كان غفارا » ·

وقال تعالى : « قال انى لعملكم من القالين » ·

سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل ·

وقال الشاعر :

سريع الى ابن العم يلطم وجهه
وليس الى داعي الندى بسريع

ولشاعر آخر :

سكران : سكر هوى وسكر مدامة
أنى يفيق فتى به سكران ؟

فى هذه الأمثلة نجد اللفظة واقعة فى أول الفقرة (١) ، أو أول بيت الشعر ، وهى نفسها ـ سواء كانت بمعنى اللفظة الأولى أم أن اللفظتين اختلفتا معنى ـ فى آخر الفقرة أو آخر البيت من الشعر ٠

ومثل هذا الأسلوب يسمى رد العجز على الصدر وهو من المحسنات البديعية التى ترجع الى اللفظ ، ولا شك انه يكسب الكلام سحرا وبلاغة ٠

فرد العجز على الصدر هو أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين فى أول الجملة ، واللفظ الآخر فى آخرها ، وكذلك فى الشعر أن يكون أحد اللفظين فى أول البيت والآخر فى آخره ٠

ورد العجز على الصدر فى الشعر أكثر تنوعا ، وأشمل لألوان عديدة فمن رد العجز على الصدر فى الشعر أيضا :

قول الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

وقوله :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا
ان الحياة عقيدة وجهاد

وقوله :

وان لم يكن الا معرج ساعة قليلا
فانى نافع لى قليلها

---

(١) الجملة من الكلام ٠

فنجد أحد اللفظين المكررين وقع فى آخر البيت واللفظ الآخر وقع فى وسط الشطر الأول من البيت ، أو فى أول الشطر الثانى من البيت كذلك ٠

فكل هذه الأمثلة وما شابهها تعد من رد العجز على الصدر الذى عرفتك معناه ٠

المحسنات المعنوية :

١ ــ المطــــابقة :

١ ــ حيطــــــانه من نـــور
والسقف مـــن نيـــران

٢ ــ تعز من تشاء وتذل من تشاء ٠

٣ ــ واصـــدع شـكى باليقين وانتى
لنفسى على بعض الســاءة حابس

٤ ــ انه الدهر يعصى ويطيع ٠

٥ ــ يتقلب العالم فى أحضان السلام والحرب ٠

٦ ــ أنت بعيد قريب ٠

٧ ــ ما بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار ٠

٨ ــ تسير من ظلام الى نور ومن شقاء الى سعادة ومن شر الى خير ٠

فى الأمثلة السابقة طباق أو مطـابقة يكسب المعنى ســحرا والأسلوب جمالا ٠٠

والطباق هو الجمع بين معنيين متقابلين فى كلام واحد ٠

أقسام الطبـــاق :

١ ــ طباق ايجاب مثل ضحك وبكى وحزن وسر وقام وقعد ٠ فهو ما كان تقابل المعنيين فيه بالتضاد ٠

٢ ــ طباق سلب ، مثل أعلم ولا أعلم ، وأعرف ولا أعرف ، ولا تمش فى الشر وامش فى الخير ، ولا تعص أستاذك واعص من يغشك ٠

فهو ما كان تقابل المعنيين فيه بالاثبات والنفى أو بالأمر والنهى ٠

أمثلة للطباق :

١ ـ تضحك الأرض من بكاء السماء .

٢ ـ أعاذل قد كبرت على العتاب
وقد ضحك المشيب على الشباب

٣ ـ عرفت زماني بؤسه ورخاءه
ودهرك يخطئ تارة ويصيب

٤ ـ وكم ذم لهم في جنب مدح
وجد بين أثناء المزاح

٥ ـ جل ما بي وقل صبري ففي قلبي
جراح وحشو جفني السهاد

٦ ـ شيبتني وما يشيبني السن
هموم تترى ودهر عنيد

٧ ـ هل لدنيا قد أقبلت نحونا دهرا فصدت وليس منا صدود .

المقابلة :

أمثلة :

١ ـ قال تعالى : فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا .

٢ ـ وقال صلى الله عليه وسلم للأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع .

٣ ـ وقال خالد بن صفوان : ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية .

التحليل :

في الأمثلة الماضية تجد أن كل مثال منها يشتمل في صدره على معنيين ويشتمل في عجزه على ما يقابل هذين المعنيين على الترتيب ، ففي الآية الكريمة ذكر الله تعالى الضحك والقلة ، ثم قابل ذلك بالبكاء والكثرة على الترتيب ، وفي الحديث الشريف جمع الرسول بين صفتين من صفات الأنصار في صدر الكلام هما الكثرة والفزع ، ثم قابل ذلك في آخر الكلام بصفتين

اخريين مقابلتين للصفتين السابقتين ، وهما القلة والطمع على الترتيب ، وقابل خالد فى كلمته الصديق والسر بالعدو والعلانية ·

ومثل هذا الاسلوب يسمى مقابلة ، ولا شك ان المقابلة تكسب الكلام والمعنى جمالا وسحرا وبلاغة ·

القاعدة :

المقابلة هى ان ان يؤتى فى الأسلوب بمعنيين او اكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب :

امثلة للمقابلة :

١ ــ يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ·

٢ ــ كدر الجماعة خير من صفو الفرقة ·

٣ ــ ما كان الرفق فى شىء الا زانه ، ولا نزع من شىء الا شانه ·

٤ ــ البحترى :

واذا حاربوا اذلوا عزيزا
واذا سالموا اعزوا ذليلا

٥ ــ فتى تم فيه ما يسر صديقه على ان فيه ما يسوء الأعاديا

٦ ــ يا دهر يا منجز ايعاده
ومخلف المأمول من وعده ·

٧ ــ ومنظر كان بالسراء يضحكنى
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى ·

٨ ــ وقال تعالى : « باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » ·

٩ ــ على يستيقظ فى الليل وينام فى النهار ·

١٠ــ فلا الجود يفنى المال والجد مقبل
ولا البخل يبقى المال والجد مدبر ·

١١ــ ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
واقبح الكفر والافلاس بالرجل ·

١٢ــ ازورهم وسواد الليل يشفع لى
وانثنى وبياض الصبح يغرى بى ·

١٣ـ ما اجمد فى حق ولا اذوب فى باطل

١٤ـ لن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها
سرور محب أو اساءة مجرم ؟

والمقابلة هنا ناقصة بعض الشيء ، ومعيبة بعض العيب ، اذ المجرم لا يقابل المحب وانما يقابل البريء والمحب يقابله المبغض ٠

١٦ـ على راس عبد تاج عز يزينه
وفى رجل حر قيد ذل يشينه ٠

مراعاة النظير :

امثلة :

١ ـ الشمس والقمر بحسبان

٢ ـ كان الثريا علقت فى جبينه
وفى خده الشعرى ، وفى وجهه البدر ٠

٣ ـ والضحى والليل اذا سجى

٤ ـ الكتابة والصحافة والشعر من الفنون المهذبة ٠

٥ ـ الجامعات والمدارس والمعاهد والمكتبات والاذاعة تعمل عملها فى تهذيب النشء ٠

٦ ـ فيه من كرم حاتم ، وفصاحة قس ، وبلاغة سحبان ، وشجاعة عنترة ، ما يجعله عظيما ٠

٧ ـ هو اسماعيلى الوعد ، شعيبى التوفيق ، يوسفى العفو ، محمدى الخلق ٠

٨ ـ الورد والزهر والروض والثمر والحدائق الغناء ، والاشجار اللفاء والنباتات الخضراء ، مما يبعث فى النفس السرور والارتياح ٠

التحليل :

فى المثال السابق قد جمع فى الاسلوب بين امور متناسبة ، ليست متضادة ، فكل مثال منها مما يسمى المحسن المعنوى فيه « مراعاة النظير » ٠

ولا شك أن مراعاة النظير تكسب المعنى جمالا والكلام سحرا ٠

التعــريف :

مراعاة النظير هي أن يجمع في الكلام بين أمور متناسبة لاعلى سبيل التضاد ومن هذا نعرف أن جمع أمور متناسبة على وجه التضــاد لا يسمى « مراعاة النظير » وانما هو طباق او مقابلة على ما عرفت من قبل ·

التـــورية :

١ ــ يا عــــاذلي فيــــه قل لي
اذا بدا كيف أســــلو ؟

يمـــــر بي كـل وقت
وكلمــــا مـــر يحلـــو

« مرهنا » لها معنيان : قريب وهو المرور والذهاب ، وبعيد وهو ضــد الحلاوة والمراد هنا هو المعنى البعيد ·

٢ ــ وتقول عن رجل جبان : دعوه يأكل عيشه بجبنه
فالمعنى القـــريب لكلمة جبنه : أكل العيش بالجبنة وهو غير مـــراد ، والبعيد : الحياة في ظلال الجبن وهو المراد ·

٣ ــ وقال أبو بكر حين سئل عن النبي صلى الله عليه وسـلم ، وهما مهاجران الى المدينة : هاد يهديني · فالمعنى القريب انه يرشده الى الطريق في السفر ، والمعنى البعيد انه يهديه الى الحق والدين والخير وهو المراد ·

٤ ــ ويقول الشاعر :

الروض أحسن مارأيت اذا تكاثرت الهموم
تحنو على غصونه ويرق لي رقيه النسيم ·

فالمعنى القـــريب للكلمتين تحنو ويرق هو العطف والشفقة · والمعنى البعيد : ميل الاغصان ولطف النسيم ، وهو المراد ، ففي كل من اللفظين تحنو ويرق جمال فني بديع نسميه تورية ·

الخلاصــــة :

التورية هي أن يذكر لفظ له معنيان : أحدهما قريب غير مراد ، والثاني بعيد هو المراد ، ويدل على المعنى البعيد المراد بقـرينة يغلب أن تكون خفية لا يدركها الا الفطن ·

أمثلة للتورية :

١ ـ جودوا لنسجع بالمديح
على علاكم سرمدا .

فالطير أحسن ماتغرد
عند ما يقع الندى .

٢ ـ شكرا لنسمة أرضكم
كم بلغت عني التحية .

لا غرو أن حفظت أحاد
يث الهوى فهي الذكية .

٤ ـ أقول وقد شدوا الى الحرب غارة
دعوني فاني آكل الخبز بالجبن .

العكس :

١ ـ قال تعالى : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » .

٢ ـ وقال تعالى : « هن لباس لكم ، وانتم لباس لهن » .

٣ ـ وقال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابكم عليهم من شيء » .

٤ ـ وقال الحسن البصري : « ان من خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف » .

٥ ـ وقال الشاعر :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده .

٦ ـ وقال الشاعر :

ان الليالي للأنام مناهل
تطوى وتنشر دونها الاعمار .

فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار .

٧ ـ قال الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا .

وفى المثال الأول نجد جملتين قد عكس متعلق الفعلين فيهما – أى فى هاتين الجملتين – الحى من الميت ، الميت من الحى ، وكذلك الأمر فى المثال الرابع والسابع ٠

وفى المثال الثانى قدم جزء فى أول الجملة ، ثم أخر فى الجملة الثانية ، وكذلك الامر فى المثال الثالث والخامس والسادس ٠

والاسلوب فى هذه المثل كلها يسمى العكس أو التبديل ، وهو من المحسنات المعنوية التى تكسب الاسلوب والمعنى جمالا وطرافة ٠

والعكس بمعناه العام هو ان يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ٠

المشاكلة :

قال تعالى : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** » ٠

وقال تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » ٠

وقال تعالى : « **تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك** » ٠

وقال الشاعر :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه

قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

وقال تعالى : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ٠

فى المثال الأول سمى الله تعالى جزاء السيئة باسم السيئة لوقوع جزاء السيئة بجوارها ٠

وفى المثال الثانى سمى الله تعالى رد الاعتداء باسم الاعتداء لوقوعه بجواره ، وكذلك فى المثال الثالث سمى ذات الله باسم النفس لوقوعها بجوار لفظة « نفسى » ٠

وفى المثال الرابع سمى الخياطة باسم الطبخ (اطبخوا) لوقوع لفظة « اطبخوا » قبلها ٠

وفى المثال الخامس سمى تطهير الله باسم الصبغة لوقوعه فى صحبة الصبغة المقدرة التى تدل عليها حال الكلام فقد جىء بلفظ « الصبغة » مشاكلة للفظة الصبغة المقدرة دون أن تكون قد تقدمت فى الكلام ، لان قرينة الحال التى هى سبب النزول وهى غمس النصارى أولادهم فى ماء صفر يسمونه

المعمودية قرينة على ذلك ، والمراد بـ « صبغة الله » تطهير الله ، لأن الايمان يطهر النفوس » ·

ومثل هذه الاساليب كلها تسمى مشاكلة ·

فالمشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا او تقديرا ، فذكره تحقيقا كما في الأمثلة الاربعة الأولى ، وذكره تقديرا كما في المثال الخامس ·

والمشاكلة من المحسنات البديعية الراجعة الى المعنى وهي تكسب المعنى طرافة وجمالا وحسنا ، متى اتى بها البليغ جيدة الاداء والمعنى ·

الاستخدام :

قال الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وان كانوا غضابا ·

أراد الشاعر بالسماء المطر ، وبهاء الضمير في « رعيناه » العائدة الى السماء النبات ، فالسماء هنا لها معنين : المعنى الاول المطر ، والمعنى الثانى النبات ، فقد اريد بلفظ السماء احد المعنيين ، وبضمير السماء معناها الاخر ·

وقال شاعر اخر :

فسقى الغضا (١) والساكنيه وان هم
شبوه بين جوانحي وضلوعي ·

فقد اراد الشاعر بضمير الغضا في قوله : « الساكنيه » المكان ، وبضمير الغضا الاخر في قوله « فشبوه » الشجر ·

ومثل هذا الأسلوب يسمى استخداما ، فالاستخدام هو أن يراد بلفظ له معنيان احد المعنيين وبضميره المعنى الاخر كما في المثال الاول ، أو يراد بأحد ضميرى اللفظ احد المعنيين وبالضمير الثانى المعنى الاخر كما في المثال الثانى ·

والاستخدام من المحسنات البديعية التى تكسب المعنى والأسلوب جمالا

---

(١) الغضا : اسم شجر ينبت في امكنة خاصة من الصحراء ·

متى تحسن المحسنات البديعية ؟

تحسن المحسنات البديعية اذا :

١ ـ طلبها المعنى واستدعاها المقام ·

٢ ـ وكانت غير متكلفة ولا متراكمة بجوار بعضها ·

٣ ـ واكسبت الكلام سحرا ، بأن تشوف السامع ، وتقرب المعنى منه ·

٤ ـ وكانت في موضوعها الملائم من الاسلوب ·

امثلة لمحسنات بديعية بليغة :

١ ـ قال تعالى : « **فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** » ·

٢ ـ احرص على الموت توهب لك الحياة ·

٣ ـ انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ·

٤ ـ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ·

٥ ـ كلهم اعمى اذا ما كان خير
ولدى الشر بصير وسميع ·

٦ ـ فأمامي المر من عمري
وورائي منه ما طابا ·

٧ ـ يقوم الليل وينام النهار :

٨ ـ تاه علينا فتاه منا
فلا نراه ولا يرانا ·

٩ ـ ويا من مدحه كذب
ويا من ذمه صدق

ملاحظة :

اذا لم تستوف المحسنات البديعية شروط حسنها كانت قبيحة مملوله فلا توضح المعنى وتقربه وتشوق اليه ، بل تخفيه وتبعده وتجعل السامع يمل من سماع الكلام ·

وكذلك اذ كثرت المحسنات البديعية فى الكلام جنت على المعنى وقللت من جمال الاسلوب وروعته ولم تفد السامع كبير فائدة ٠

وانما تستحب المحسنات اذا تصرف فيها الاديب بذوقه وطبعه فجاءت قليلة جميلة رائعة على ما سبق فى الفصل السابق ٠٠ ومن امثلة تراكم المحسنات البديعية قول الحريرى :

زينب زينت ، بقد يقد
وتلاه ويلاه نهد يهد ٠

جندها جيدها ، وظرف وطرف
ناعس تاعس ، بحد يحد ٠

قدرها قدرها ، وتاهت وباهت
واغتدت واعتدت بخد يخد ٠

الباب الثامن

البلاغة العربية ومكانها
من حركات التجديد

البلاغة من السكاكي الى العصر الحديث :

- ١ -

ترك السكاكي (ـ ٦٢٦ هـ) كتابه « مفتاح العلوم » الذي شغل العلماء منه « القسم » الثالث ، والذي جعله قاصرا على البلاغة ، لمكانه من التحديد ، والتنظيم ، والتقسيم ، والتبويب ، وتلاه بدر الدين بن مالك (ـ ٦٨٦ هـ) صاحب كتاب المصباح (ـ ٧٣٩ هـ) ٠

وجاء بعده الخطيب القزويني صاحب كتابي : « الايضاح والتلخيص » ثم حمزة بن يحيى العلوى (ـ ٧٤٩ هـ) مؤلف كتاب « الطراز » ، وابن قيم الجوزية (ـ ٧٥١ هـ) صاحب كتاب الفوائد ، وغيرهم ٠

وجاءت مدرسة تلاميذ السكاكي من مثل : السعد (ـ ٧٩١ هـ) ، والسيد (ـ ٨١٦ هـ) والسبكي ، وابن يعقوب ، وغيرهم ٠

ثم جاء السيوطي صاحب « عقود الجمان » ، (توفي عام ٩١١ هـ) ، وقد اطلعت على كتاب مخطوط له في البلاغة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ٠

وفي العصر الحديث نادى أمين الخولي ومحمد عرفة وعبد الله العلايلي وأحمد الشايب ، كما نادى آخرون معهم بالتجديد في البحث البلاغي ٠

فذهب محمد عرفة الى وجوب فهم التراث فهما جيدا ، والى الاضافة عليه ، والتجديد فيه ٠

وذهب الخولي الى أن تقسيم البلاغة الى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته ، ولا جدوى منه : والى أن البحث البلاغي يجب أن يشمل الكلمة والجملة والجملة والفقرة والقطعة الأدبية جميعا دون البحث عن الجملة أو الجملتين فحسب ، كما ذهب الى أن طريقة العجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها ، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الاحساس بالجمال والتعبير عنه ، وهذه الدراسات نجدها في علم النفس الذي يجب أن نبحث في أثره في التعبير الأدبي ، وفي دراسة الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني ، وفي الخيال والذاكرة والذوق والاحساس ، وتحدث في كتابه فن القول عن مسائل كثيرة حول البلاغة ومشكلاتها ، وذهب الى أن فن القول يدور حول أقسام ثلاثة :

١ ـ المبادىء ٠ ٢ ـ المقدمات ٠ ٣ ـ البحوث ٠

والمباديء لتعريفنا بفن القول وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات .

والمقدمات تدور حول دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي .

والبحوث تسير في بحث الكلمة والجملة ، والفقرة ، والقطعة .

ثم ندرس الأسلوب وأنواعه : من أسلوب فكاهي وتهكمي ورمزي وغير ذلك (١) .

ويذهب أحمد الشايب الى أن البلاغة يمكن حصرها في موضوعين رئيسيين ، هما : الأسلوب ، والفنون الأدبية .

ففي الفنون الأدبية ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها ، وقواعد هذه الفنون : كالقصة والرسالة والمناظرة والتاريخ والمقالة والوصف ، وسوى ذلك .

وفي الأسلوب ندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة وأنواع الأسلوب (٢) .

وينادي العلايلي بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية .

وعلم المعاني عنده متصل بالأدب وبكتبه ، وكذلك البديع يدرس كما يدرس علم المعاني (٣) .

وهناك آراء أخرى تدعو الى التجديد البلاغي ، وتنادي به ، وترسم له طريقه (٤) ، ومن بينها آراء كثيرة للأستاذين : عبد المتعال الصعيدي (٥) ، وأحمد مصطفى المراغي (٦) ، رحمهما الله .

---

(١) راجع كتاب « فن القول » وكتاب « مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والآداب » المطبوع عام ١٩٦١ ـ بالقاهرة .

(٢) راجع كتاب « الأسلوب » للشايب .

(٣) راجع كتاب مقدمة لدرس لغة العرب للعلايلي .

(٤) راجع مجلة الكتاب العراقية ـ عدد نيسان ١٩٦٢ ـ مقال للدكتور أحمد مطلوب بعنوان « آراء في البلاغة العربية » .

(٥) راجع كتاب البلاغة العالية وتجديد البلاغة .

(٦) راجع كتاب بحوث وآراء في البلاغة .

تيارات جديدة في البلاغة :

- ١ -

البلاغة العربية لا تبتدىء بعبد القـــاهر الذى وضع أصولهـــا ، وابتكر بحوثها في القرن الخامس الهجـرى (٤١٣ ـ ٤٧١ هـ) والف فيهـــا كتابيه الجديدين فى تاريخ الأدب والنقد والبيان العربى ، وهما : دلائل الاعجـــاز ، وأسرار البلاغة ؛ ولا تبتدىء كذلك بالسكاكى الذى وضع اصطلاحاتها الفنية ، وقسمها الى علوم ثلاثة :

المعانى ، والبيان ، والبديع ··· ووضع لكل علم منها بحوثه ومقوماته واصطلاحاته ، ومنذ توفى عام ٦٢٦ هـ حتى اليوم والبلاغة العربية عالة على كل شيء كتبه ، وكل اصطلاح سماه ·

انما هى حركة فكرية بيانية تتحكم فيها تيارات عديدة :

١ ـ **التيار العربى** : وقد شرع له كثير من ائمـــة اللغة والأدب والنقـــد والبيان فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وفي مقدمتهم ابو عمرو بن العلاء (ـ ١٥٤ هـ) والخليل بن أحمد (ـ ١٧١ هـ) والمفضل (١٧٨ هـ) وخلف ١٨١ هـ وسيبويه (ـ ١٨٩ هـ) ، وابو عبيدة (ـ ٢٠٨ هـ) والاصمعى (ـ ٢١٦ هـ) وابن سلام الجمحى (٢٣١ هـ) وكان يمثل هذا التيار آراء موجزة مفرقة غير محددة فى أصول النقد والأدب والبيان ، وانضم اليها آراء كثيرة قيلت فى الشعر والشعراء ، منها : ما لوحظ على الفرزدق من قوة ومن تعقيد ، وما لوحظ على زهير من انتقاء التعقيد فى شعره ، وما لوحظ على جرير من عذوبة ورقة ، وما لوحظ على بشار من توليد ، وعلى أبى العتاهية من طبع ، وعـلى مسلم من صنعة ، وما لوحظ على ذى الرمة مثلا ـ ناغراب ، وساند هـــذا التيار امام كبير من ائمة الأدب والبيان والتبيين ، وهو الجاحظ ـ ٢٥٥ هـ فى كتابيه (البيان) و (الحيوان) ، وغيرهما من روائع الآثار ، ثم أيد هذا التيار : ابن قتيبة (ـ ٢٧٦ هـ) صاحب كتاب (الشـعر والشعراء) وكتـــاب (أدب الكاتب) ، وابراهيم بن المدبر صاحب (الرسالة العذراء) فى فن الكتـابة والرسائل ، وقد ضمنهـا بعض موازين للنقد والبـلاغة ، وأيده كذلك المبرد (ـ ٢٨٥ هـ) صاحب كتاب (الكامل) وكتاب (المقتضب) وغيرهما ، ثم ثعلب (ـ ٢٩١ هـ) صاحب كتاب (قواعد الشعر) وغيره ، ثم ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر (ـ ٢٩٦ هـ) ، وهو صاحب كتاب (البديع) المشهور الـذى وضع فيه بعض اصطلاحات علمية للبلاغة ، وحدد هذه الاصطلاحات واستشهد لها بكثير من الشواهد والأمثلة ، وقد استمر هـذا التيار متدفقا بعـد القرن الثالث ، وظهر فى كتابات الآمدى (ـ ٣٧١ هـ) فى كتابه المشهور (الموازنة) ،

والقاضي الجرجاني (ــ ٣٩٢ هـ) في كتابه (الوساطة) وغيرهما من ائمة الأدب والنقد : كالباقلاني صاحب كتاب (اعجاز القرآن) ٠

٢ ــ **التيار الأجنبي** : وقد شرع له في أوائل القرن الرابع الهجري قدامة بن جعفر (ــ ٣٣٧ هـ) في كتابه المشهور (نقد الشعر) الذي يظهر فيه التأثر بآراء أرسطو في الشعر ، وبالتيار المترجم من الأدب اليوناني القديم ، وكانت كتب أرسطو في الخطابة والشعر وفي غيرهما قد ترجمت في القرن الثالث الهجري ترجمات عربية ذاعت في كثير من بيئات العرب الثقافية ، وكتاب البرهان أو (نقد النثر) لابن وهب (١) ، وهذا الكتاب كذلك يطلعنا على تأثير التيار الأجنبي في نقد البيان العربي ودراسته ٠

ولقد تأثر بهذا التيار الأجنبي وبآراء قدامة في نقد الشعر ثلاثة من كبار ائمة النقد في الأدب العربي ، فألفوا كتبا مشهورة اصطنعوا فيها نفس منهج قدامة في النقد والبيان الذي سار عليه في كتابه نقد الشعر ، ولجأوا الى اصطلاحاته ، والى نظرياته ، والى تفاصيل موضوعاته ، وان خالفوه أحيانا في الشرح أو التعليق أو التطبيق أو في رأى من الآراء ، أو في الايجاز حينا والبسط والتفصيل حينا آخر ، وهم :

(أ) أبو هلال العسكري (ــ ٣٩٥ هـ) صاحب كتاب (الصناعتين) ، وهو امتداد تام لقدامة ومنهجه في النقد والبيان ٠

(ب) الأمير ابن سنان الخفاجي (ــ ٤٦٦ هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) الذي اتبع فيه كذلك نفس منهج قدامة ، مع ظهور شخصيته في الدراسة والبحث والعرض والاستنتاج ٠

(جـ) ابن رشيق (ــ ٤٥٦ هـ) صاحب كتاب (العمدة) الذي صنع صنيع أبي هلال والخفاجي في سلوك منهج قدامة العلمي في النقد والبحث ، وقد استمر منهج قدامة سائدا بعد هؤلاء النقاد حتى آل الى حاتم والسكاكي (ــ ٦٢٦ هـ) ٠

٣ ــ **التيار المزدوج** : وقد شرع له عبد القاهر الجرجاني (ــ ٤٧١ هـ) الذي أفاد من آراء المدرستين السابقتين ، في النقد الأدبي ، فكتب فصولا ومقالات وبحوثا عن أصول البلاغة العربية وموازينها بروح ابتكارية نقدية

---

(١) راجع شرحي على كتاب الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ٠ حيث نفيت نسبته لقدامة واثبت نسبته لابن وهب ٠

عميقة ، وقد ضمن دراساته هذه كتابيه (الدلائل والأسرار) اللذين سبق أن أشرنا اليهما ·· ويعد عبد القاهر امام (البلاغة العربية) ، من حيث أنه أفاد من التيارات المختلفة فى دراسة أصول البيان العربى ، وجدد فيها ، ومن حيث انه وضع مباحث علوم البلاغة ، وقنن لموضوعاتها ، وذلل صعوبات البحث فيها ، وشرح مناهج البحث ، ثم اتبع سبيله الرازى (ــ ٦٠٦ هـ) فى كتابه (دراية الاعجاز) ، ثم السكاكى فى كتابه (المفتاح) ، أو على الأصح فى القسم الثالث منه الذى خصه بالبلاغة العربية ، وقد امتاز السكاكى بتحديد علوم البلاغة وموضوعات كل علم منها ، وتشريع جميع اصطلاحاتها ، وانه جمع فى كل مسألة آراء عبد القاهر المفرقة فجعلها دستوره وهيكل البحث البلاغى حولها ، ولكنه مع ذلك اضاف الى عبد القاهر ما استطاع أن يضيف اليه من زيادات واصطلاحات ، ويمتاز السكاكى عموما بتعقيده للبلاغة ، وبتعقيده كذلك فى دراستها ، فقد كان يحكم الأسلوب المنطقى فى كل شيء ، فاتخذ من هذا الأسلوب وسيلة للبحث وتنظيم الدراسة ، ومن ثم ساد الأسلوب المنطقى الجدلى مباحث البلاغة العربية منذ ظهر السكاكى ، وقد اقتفاه فى ذلك تلاميذه من مثل القزوينى (ــ ٧٣٩ هـ) والسعد (ــ ٧٩١ هـ) والسيد (ــ ٨١٦ هـ) ، والعصام وغيرهم ·

وقد ظل نهج هذه المدرسة سائدا فى دراسة البلاغة حتى اليوم ·

- ٢ -

ومدارس البلاغة العربية اليوم ، تظهر فى بيئات علمية عديدة كبيئة كليات الآداب فى جامعاتنا ، وبيئة كلية اللغة العربية فى الأزهر ، وتمتاز الاولى بظهور محاولات لتلقيح البلاغة العربية بالبلاغات الأوربية ، نجد صداها فيما ألف الشايب فى كتابه (الأسلوب) ، وفيما ألف الخولى فى كتابه (فن القول) ، وفيما ألف طه حسين من كتب موجزة لمدارسنا ، وتمتاز الثانية ، بالتعمق فى دراسة البلاغة العربية وتصفيتها من الشوائب ومن الآراء المعقدة التى تسربت اليها ، وكتاب الايضاح للقزوينى على أية حال صورة لاتزال ذات اثر كبير فى التفكير البلاغى عند مختلف البيئات البيانية فى مصر والعالم العربى ·

ولكن صدى التجديد فى دراسة البلاغة العربية ضعيف غاية الضعف قليل الجدوى غاية القلة ، متعثر فى خطاه كل التعثر ، وكأن الدرس البلاغى لا يعنى مصر والعالم العبى فى قليل ولا فى كثير ، مع أن عالمنا العربى هو موطن العروبة ، والأرض التى نزلت فيها معجزة القرآن الكريم واستمعت الى بلاغته ·

واحب القول بانه يجب تغيير البلاغة العربية تغييرا كاملا شاملا :

(ا) فيحذف ما نسميه علم المعاني والبديع ويحل محلها فن الأسلوب ، على أن تكون موضوعات بحث هذا العلم ، هي : صور التعبير البلاغي ، بلاغة الايجاز ، بلاغة الاطناب ، بلاغة القصر ، قوة الأسلوب وعذوبته ، أسلوب الالتفات ، أسلوب التجريد ـ الأسلوب الحكيم ، أسلوب الخبر ، أسلوب الانشاء ، أسلوب التكرير ، الذوق البلاغي وأثره في الأسلوب ، الاسناد الى الفاعل وغيره ، بلاغة الاسناد العقلي ، ثقافة الكاتب والأسلوب ، الطبع والصنعة ، ويدخل فى الصنعة بعض الصور التى هى مباحث ما نسميه بعلم البديع ٠

(ب) يحذف ما يسميه علم البيان ويحل محله (فن الخيال البياني) أو « الصور البيانية » ويشتمل هذا الفن على ما يلى :

الحقيقة والخيال ٠

الخيال في التشبيه ـ الخيال في الكناية ـ الخيال في الاستعارة ـ الخيال في حسن التعليل ـ الفكرة الفلسفية والتعبير ـ الخيال والمبالغة ـ صور الخيال فى البيان العربى ـ التجديد فى الخيال ٠

وان أردنا اسما قديما لهذا الفن ، فما أحرانا أن نطلق عليه (فن المعانى) بدلا من فن البيان ، ونطلق على الفن السابق وهو فن الأسلوب اسم (فن البيان) ٠

(ج) يحذف من البلاغة كل ما يتصل بالنحو العربى عن مثل : مباحث باب المسند وباب المسند اليه ٠

(د) يحذف منها كل ما يتصل بالمنطق والفلسفة ٠

(هـ) تختار امثلة جديدة لشتى بحوث البلاغة من ناصع الأدب العربى وبليغه في مختلف العصور وبخاصة مما يحفظه الطلاب من نصوص أدبية على أن توجد هذه النصوص في مختلف المدارس والمعاهد في العالم العربي للفرق المتساوية ٠

٢ ـ ينشأ درس للنقد البلاغي يدرس فيه شخصية الأديب وسمات أدبه ، وخصائصه الأسلوبية ، وتجديده البياني ، ومدى ما يشتمل عليه أدب الأديب من عاطفة وصدق واثارة ، ومدى ما وصل اليه الأديب من تجديد فى فنه البلاغي ٠

هذه خطوط عامة صغيرة لا يضيرنا أن نقول انها قد تعد نواة لما ننشده من تجديد ٠٠٠

حول التجديد البلاغي :

- ١ -

النقد أو البلاغة العربية مدينتان على نشأتهما الأولى لجهود علماء اللغة والأدب ، ولمثابرة الرواة والنقاد الباحثين في أصول البيان العربي ، مع الأثر الفذ الذي أحدثه الكتاب والشعراء والأدباء في القرن الثاني والثالث الهجري ·

ولقد تلاحقت الثقافات ، واتصلت المعارف ، وتبودلت الأفكار ، في عواصم العلم والثقافة في العالم الاسلامي القديم ، على أيدي العرب الذين نبغوا في اللغات الأجنبية ، والموالي الذين حذقوا اللغة العربية وأجادوها ، والمترجمين الذين كانوا همزة الوصل بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الاسلامية الأصيلة ·

كان خلف لا يشق له غبار في صناعة النقد ، « لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها » (١) ، وكان أبو عبيدة يعجب من فطنة بشار وجودة قريحته وصحة نقده للشعر (٢) ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه (٣) ، وكان الجاحظ (٤) يرى أن بشارا زعيم المولدين ·· ثم جاء ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المدبر وابن المعتز ، فكان لجهودهم أثر كبير في نشأة البلاغة ونمو البحث في أصول البيان ·

ولا ننسى جهود طائفة أخرى من العلماء في اثارة البحوث البلاغية والتعليق عليها ، وتلك الطائفة هي جماعة العلماء الذين شغلوا بالبحث في اعجاز القرآن الكريم وتفهم أسرار هذا الاعجاز والتأليف فيه ، فكشفوا الكثير من غوامض البلاغة وأصولها ، ومن هؤلاء أبو عبيدة والجاحظ وسواهما من أئمة المعتزلة وفحولها ·

---

(١) ١/١٩٧ العمدة ·
(٢) ٢٠٧ طبقات ابن سلام ·
(٣) ٣/٢٣ الأغاني ·
(٤) ١/٩١ العمدة ·

وعلى ايدى قدامة وابى هلال والآمدي والقاضي والجرجاني وغيرهم من افذاذ النقاد في القـرن الرابع الهجرى ، نرى البحث البلاغى ينمو ويقـوى ويزدهر · ثم تلاهم الباقلاني وابن سنان وابن رشيق من علماء النقد والبيان ·

ولقد لمعت عبقرية عبد القاهر الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ فى هـــذا العهد ، وكان مظهر هذه العبقرية اللماحة كتابان جليلان الفهما قبل وفاته بقليل هما : (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) اللذان يعدان حتى اليوم اصـــلا ضخما من أصول البيان وبحوث البلاغة والنقد والموازنة ·

وبعد عبد القاهر انطفأ السراج ، وذبل العود ، وأصيبت الأذواق بالعى والعجز ، كما اصيبت البلاغة بالتأخر والاضمحلال · وبعد نحو قرن ونصف قرن ظهر فجأة السكاكي بعقليته المنطقية وذوقه الأعجمي ، فأحال البلاغة الى جدل عقيم فى الالفاظ والأساليب ، والى قواعد جافة لا صلة لها بالذوق ولا بالحياة ، وكثر تلاميذ السكاكي ، وانتشر مذهبه فى البلاغة الذى يمثله القسم الثالث من كتابه (المفتاح) ، والذى عنى فيـه مؤلفه بالقشور لا باللبـاب ، وبالتوافه لا بالحقائق ، ولاتزال دراستنا للبلاغة حتى اليوم قائمة على أصول مذهب السكاكي وتلاميذه وحدهم دون سواهم ·

- ٢ -

ولقد نهض جماعة من ادبائنا يدعون الى التجديد فى البلاغة ، فمن قائل : ان الكتب القديمة يجب أن تحل محلها كتب اخرى مؤلفة على النهج الحديث ، ومن دعاة الى تلقيح البلاغة العربيـة بأصول الدراسات البلاغية فى شـتى اللغات الحديثة الأوربية ، ومن ناهجين مناهج الغرب فى بحث أسرار البلاغة واصولها ، ومن منادين الى مذاهب البلاغيين القدماء : من أمثال عبد القاهر وقدامة وأبى هلال ·

وهكذا تعددت الآراء ، وتخاصمت الأفكار ، فى التجديد فى البلاغة ، وبيان كيف يكون هذا التجديد ، على أن أذواق علمائنا المعاصرين وأدبائنـــا المشهورين لا تكاد تساعد على الوصول الى هدف أو غاية ينشدهما المشفقون على البلاغة العربية اليوم ، والذين يحاولون التجديد فيها يكتفون بنقل افكار الغربيين دون فهم أو يقظة فكرية أو الما ما بتراثنا القديم الخالد فى البلاغة والبيان والنقد ·

عرض عبد القاهر الجرجاني للحـذف ومكانه من البـلاغة دون أن يبين سبب هذا الحسن والاحسان ، وسر هـذا الجمال البيـاني الأخـاذ ، ويذهب

السكاكي والخطيب وتلاميذهم الى أن الحذف في موضعه كالذكر في موضعه ، لكل مكانه من البلاغة ، ومنزلته من سحر البيان ، وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر بل هما يحصلان البلاغة ويوجدانها ، ثم عللوا الحذف بعلل متكلفة لا صلة بينها وبين احكام الذوق الأدبي السليم ٠

ولكن الدراسة التي نشرت في مجلة الأزهر ـ عدد ربيع الأول ١٣٧٢ هـ ـ بعنوان « علوم البلاغة في الميزان » والتي اتجه فيها الكاتب الى اثارة الملكات، وتنشيط الأفكار ، وتحريض الأذهان على النظر والبحث والنقد والاستنتاج والكشف ، وحفز الهمم للبحث والابتكار ، هي محاولة مجدية قوية في سبيل التجديد البلاغي ، وأول ذلك الأسرار البلاغية الدقيقة للحذف ، ومحاولة الكشف عنها ٠

ويحاول الباحث أن يعلل سر جمال الحذف وبلاغته بأسباب نفسية وأمور بيانية ، منها الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، والجدة التي نراها في أسلوب الحذف ، ومنها أن المحذوف تدل عليه القرائن ، فاذا ذكر كان ثقيلا في موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين ، فيربط بذلك بين البلاغة واحكام الذوق وأسرار البيان وملكات النفس الانسانية ٠

ومن البحوث التي اثارها هذا البحث أسلوب التجريد ، وتحليل الوان جماله وسر هذا الجمال ، بعيدا عن تكلف القدماء وتأويلهم ٠

وكذلك عرض لأسلوب : رأيت اليوم حاتما ولقيت ماردا وسمعت سحبان وما أشبه ذلك ، مما أوله البلاغيون فجعلوا حاتما هنا كأنه موضوع للجواد ، فانتزعوه من معناه وهو « العلمية على الرجل المعروف من طيء » وبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف ، وهو من يتصف بالجود ، فيصير استعماله في غير المتعارف استعمالا في غير ما وضع له فيكون عندهم استعارة ٠

والأستاذ محمد عرفة يبحث ذلك كله ويناقشه وينقده ، ويحاول الوصول الى الصواب في أمره ، حيث يرى أن المراد هنا تشبيه هذا الكريم بحاتم في جوده ، فحاتم باق على معناه دون تغيير أو تبديل ٠

ان القديم ليس كله صوابا ، وليس كله خطأ ، بل فيه الصواب ، وفيه الخطأ ، وفيه سوى ذلك الوان من القصور العلمي الذي يجب ملافاته ، فما أجدرنا بتجديد البحث والدراسة في أصول بلاغتنا ، وفي مذاهب البيان وأسراره ٠

خاتمة الكتاب

هذا الكتاب يمثل منهجا جديدا قبل ان يمثل بحثا علميا حول أساليب البلاغة وفى الامكان أن نضيف اليه فى الطبعات التالية الزيادات العلميــة المتعلقة بكل باب من ابواب البلاغة التى ذكرناها هنا فى ايجاز شديد حتى تعطى الصورة كاملة والمنهج واضحا ، والخطة ظاهرة فى عمومها وايجازها ٠

ولا ريب أن ما يثيره هذا الكتاب من بحث ، وما يوضحه من منهج ، كفيل بأن يخطط للبلاغة العربية طريقها الجديد المأمون العثار ، الذى نرجو أن تسلكه فى ضوء متغيرات العصر ، وتجديدات الفكر الراهن ، وثورة الاتصال بالجماهير التى تجعل من العالم اشبه ما يكون بقرية اليكترونية صغيرة ، حيث بلغ التواصل الانسانى اقصى مداه ، الأمر الذى يقتضى ضرورة البحث عن بلاغة جديدة ، تعبر عن هذا العصر بكل ألوانه ومتغيراته ٠

ولا نملك الا أن نقول ان الشباب المعاصرين سوف يفهمون على ضوء هذا المنهج البلاغة العربية فهما اعمق ، ينبع من الأصالة والمعاصرة والرغبة فى التجديد والتعبير عن مقتضيات التطور نحو بلاغة جديدة ٠

المؤلفان

من مصادر البحث

١ ـ الايضاح فى البلاغة للقزوينى ـ ط بيروت ـ جزآن ١٩٧٠ ٠

٢ ـ أسرار البلاغة للجرجانى ـ تحقيق خفاجى ـ مكتبة القاهرة ٠

٣ ـ دلائل الاعجاز للجرجانى ـ تحقيق خفاجى ـ مكتبة القاهرة ٠

٤ ـ الوساطة لعلى بن عبد العزيز ـ طبعة صيدا ـ لبنان ٠

٥ ـ العمدة لابن رشيق ـ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

٦ ـ فحولة الشعراء للاصمعى ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ ٠

٧ ـ نقد الشعر لقدامة ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨ ٠

٨ ـ قواعد الشعر لثعلب ـ طبع مكتبة مصطفى الحلبى ـ ١٩٤٨ ٠

٩ ـ طبقات النحويين البصريين للسيرافى ـ مكتبة الحلبى ١٩٤٨ ٠

١٠ـ البديع لابن المعتز ـ مكتبة الحلبى ١٩٤٦ ٠

١١ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ـ مكتبة الخانجى ١٩٣١ ٠

١٢ـ البيان والتبيين للجاحظ ـ تحقيق السندوبى ـ نشر التجارية ٠

١٣ـ فن القول ـ الخولى ـ القاهرة ١٩٥٦ ٠

١٤ـ البلاغة العصرية ـ سلامة موسى ٠

١٥ـ البلاغة العربية فى دور نشاتها ـ سيد نوفل ـ القاهرة ٠

١٦ـ الشعر المعاصر على ضوء الشعر الحديث ـ مصطفى السحرتى ـ القاهرة ١٩٤٨ ٠

١٧ـ النقد العربى الحديث ومذاهبه ـ خفاجى ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦ ٠

١٨ـ تحرير التحبير لابن أبى الاصبع ـ تحقيق حفنى شرف ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠

١٩ـ المثل السائر لابن الأثير ـ د٠ طبانة ، و د٠ الحوفى ـ مكتبة مصر ـ الفجالة ٠

٢٠ـ عيار الشعر لابن طباطبا ـ تحقيق محمد زغلول سلام ـ ١٩٥٦ ٠

٢١ـ البلاغة تطور وتاريخ ـ د ٠ شوقي ضيف ـ دار المعارف بالقاهرة

٢٢ـ الأسس الفنية للنقد الأدبي ـ د٠ عبد الحميد يونس ـ دار المعرفة ٠

٢٣ـ في النقد الأدبي ـ د٠ شوقي ضيف ـ دار المعارف ٠

٢٤ـ الاعلام والاتصال بالجماهير ـ د٠ ابراهيم امام ـ مكتبة الأنجلو المصرية ٠

٢٥ـ الأسس العلمية لنظريات الاعلام ـ د ٠ جيهان شتي ـ دار الفكر العربي ٠

٢٦ـ المدخل الى وسائل الاعلام ـ د ٠ عبد العزيز شرف ـ دار الكتاب اللبناني ـ القاهرة ٠

٢٧ـ في اللغة والأدب ـ د ٠ ابراهيم بيومي مدكور ـ دار المعارف (سلسلة اقرأ) ٠

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة

الموضـــــــوع	صفحـــة
الباب السادس : البيـــــان	١٣٧ ـ ١٥٦
البيـــــان	١٣٩
بحـــوث علـم البيـــان	١٤٢
التشـــــبيه	١٤٣
المجاز ـ المجـاز المرســـل	١٥٠
الاســـــتعارة	١٦٣
الكنـــــــاية	١٥٣
الفــروق بين التشبيه والمجاز والكناية	١٥٦
الباب السابع : البــــديع	١٥٧ ـ ١٧٣
ــ البـــديع واقســـامه	١٥٩
ــ المحسنات اللفظية	١٦٠
ــ المحســـنات المعنوية	١٦٤
متى تحسن المحســـــنات البـديعية	١٧٢
الباب الثامن : البلاغة العربية ومكانتها من حركات التجديد .	١٧٥ ـ ١٨٤
الخاتمـــــة	١٨٦